روايات عالمية

الشرف

AMOK

الشرف

بقلم

الكاتب الالمانى الكبير

ستيفان زيفايج

ترجمة : عمر عبد العزيز امين

- ١ -

كانت احدى البواخر الكبيرة تفرغ شحنتها في ميناء (نابولي) منذ بضعة أعوام ، حين وقع حادث عجيب اختلف الرواة بصدد في روايته • وتضاربت أقوال الصحف في سرده وتعليله • وذهب الناس كل مذهب في تفسيره وتأويله • ولم أر الحادث بعيني حين وقع ••لأنني - كأكثر المسافرين على ظهر الباخرة ضقت بالجلبة.وبرمت بالعجيج والضجيج•فهبطت الى الشاطئ• التماسا للهدوء والسكينة • وقضيت ليلتي في أحد فنادق المدينـــة •

لم أر الحادث اذن ••• ولكني في مركز يسمح لي بأن أسرده على حقيقته • واكشف عن ظروفه وبواعثه والعوامل المحيطة به •• دون أن أجني على الحق •• أو أتورط في خطأ ، ولقد انقضى على هذا الحادث •• وغيره من الحوادث التي أهم بسردها أعوام كثيرة •• فلست أرى ما يدعوني الى احترام الصمت الذي أخذت به نفسي حتى هذه الساعة •

كنت أشرف على أعمالي الواسعة في (الملايو) حين تسلمت برقية تدعوني للعودة الى أوربا لشأن خاص له أهميته وخطره فحزمت أمتعتي على عجل • ورحلت الى سنغافورة • وهناك وجدت الباخرة (وونان) تهم بالابحـــار • وكانت حافلة بالمسافرين •• وليس بها مكان محترم لشخص مثلي • فقنعت بالغرفة الضيقة المتواضعة التي استطعت الحصول عليها •

كانت هذه الغرفة أشبه بجحر صغير في ركن مجاور لقاعة الآلات •• وفضلا عن ضيقها وظلامها وقعقعة آلاتها •• فان جوها كان خانقا •• ومشبعا برائحة الزيت والشحم •• وقد اضطررت طيلة الرحلة أن أدير المروحة الكهربائية •• فكانت

ترسل تيارا هوائيا دافئا .. يلفح وجهي .. ويذكرني بتصفيق أجنحة الخفـــاش

والى جانب هذا الضيق وهذا الجو الخانق، كانت آلات الباخرة لا تكف عن العجيج والضجيج .. فكأنها قاطرة تدور حولي باستمرار متحفزة لاقتحام خلوتي . وتمزيق جسدي كما مزقت أعصابي .. ولم يكن أقل منها ازعاجا للنفس وطحنا للأعصاب .. تلك الجلبة الشديدة المنبعثة فوق رأسي . من وقع أقدام المسافرين .. وحركتهم الدائبة غدوا ورواحا . لذلك لم أكد أضع أمتعتي في الغرفة .. واطمئن الى سلامتها ! حتى بادرت بالفرار الى سطح السفينة .. حيث أخذت النسم بارتيـــاح ورضا نسيم البحر الرطيب البليل .

غير أن سطح السفينة كان كذلك حافلا بالمسافرين .. وجميع المسالك تنبض بالحركة والجلبة . فاندمجت في القوم على كره مني .. ومنعت على الرغم مني من الانصات الى الضحكات الناعمة المنبعثة من أفواه النساء المتراخيات في المقاعد .. وفي شهود المسافرين وبعضهم يتزاحمون بالمناكب على حاجز السفينة .. وبعضهم يتسكعون في المسالك الضيقـــة ولا يدرون ماذا يصنعون .. أو الى أين يذهبون ..

*

وكنت قد شهدت في ولاية الملايو .. وقبل ذلك في بورما وسيام .. مناظر عجيبة غير مألوفة .. مررت بها أو مرت بي .. تطارد بعضها بعضا . فحاولت الآن أن استوعبهـــا .. وأسجلها في ذاكرتي بنظام .. ولكني وجدت أن حصر أفكاري .. وتركيز تأملاتي وسط الجلبة والقلق اللذين يحيطان بي على سطح السفينة يكاد أن يكون مستحيلا ..

كذلك كان مستحيلا أن أحاول القراءة .. فقد كانت الكلمات والسطور تضطرب أمام ناظري .. كلما مر أحد المسافرين

وسقط ظله على صفحة الكتاب الذي أقرؤه .

وخيل الى أنني عبثا أحاول أن أخلو الى نفسي . والى تأملاتي وأفكاري وسط هذا البحر الخضم من الآدميين . ولم أجد بدا من أن أتجلد وألزم نفسي الصبر .. وأروضها على احتمال ما تكره وأن أقتل الوقت في التطلع الى ماء البحر ..

وقضيت ثلاثة أيام .. كان البحر خلالها هادئا ساكنا .. لا تشوب زرقته وسكونه شائبة .. اللهم الا أن تنحدر الشمس نحو الأفق فتستحيل صفحته الى لوحة تمتزج فيها شتى الألوان الزاهية والقاتمة .

أما الناس .. فانني سئمت التطلع الى وجوههم قبلما تنقضي هذه الأيام الثلاثة . ذلك انني رأيتهم مرارا وتكرارا حتى ألفت ما دق وخفي من تقاطيعهم وملامحهم .. فلم ألبث أن برمت بهم كما برمت بضحكات النساء .. وبثرثرة الضباط الهولنديين المسافرين باجازتهم السنوية ..

وفزعت الى صالون الباخرة التماسا للوحدة والسكينة . فطردني منه عبث طائفة من فتيات شنغهاي كن يقتلن الوقت في الصالون .. بين الرقص والغناء .

والآن لم يبق ملاذ غير غرفتي . فلجأت اليها بعد الغداء ، وبعد أن احتسيت زجاجتين من الجعة . وقد اعتزمت أن أعالج النوم عسى أن تسعفني غيبوبته الرحيمة .. فأقضي فيها أطول وقت ممـــكن .

ولما استيقظت كان الظلام يحيط بي . والعرق يتصبب على جسدي . والجو من حولي ثقيلا خانقا وانقضت بضع دقائق قبل أن أدرك أين أنا .

واحسست بأن الليل لا بد أن يكون قد انتصف أو جاوز النصف . فقد صمتت الموسيقى .. وسكنت الحركة .. وانقطع

وقع الاقدام ٠٠ ولم يعد يسمع سوى صمت الآلات ٠ أشبه شيء بنبضات قلب فولاذى ضخم يمد الباخرة العظيمة بأسباب الحياة ٠ فتشق سبيلها بشحنتها الآدمية وسط الامواج في جوف الظلام ٠

تركت الفراش وذهبت اتلمس طريقى الى سطح الباخرة ٠ فوجدته خلوا من البحارة والمسافرين ولاحت لى أعمدة الدخان المنبعثة من المداخن كأنها أشباح عظيمة تصــــل بين الارض والسماء ٠٠ ثم نظرت الى السماء فاذا هى صافية قد ازدانت فيها النجوم ٠ فكان ستارا كثيفا قد اسدل على ينبوع عظيم من ينابيع الضوء ٠٠ وكان لتلك النجوم ثغرات وثقوب فى ذلك الســتار ٠

وكان النسيم منعشا ٠٠ كعادة نسيم الليل فى البحــــار الاستوائية ٠ فملأت رئتى من شذى الجزائر البعيدة ٠ وللمرة الاولى منذ وضعت قدمى فى الباخرة ٠ أحسست برغبة ملحة فى أن اتراخى واسلم جسدى للخمول ٠ وذهنى للتــــأملات والاحلام ٠ ووددت لو استلقى على اى شيء ٠ لأتأمل النجوم واعجب بتكوينها الغامض ونظامها البديع ٠ ولكنى اينما اجلت الطرف ٠ لم اجد مقعدا اتهالك عليه ٠٠ فقد رفعت كل المقاعد ٠ ولم تبق غير اكوام الحبال ٠

استندت بيدى على حاجز الباخرة ٠ وجلست ارقب مقدمها وهو يعلو ويهبط كأنه صدر تضطرب فيه الانفاس ٠ ولست ادرى هل بقيت كذلك ساعة ٠ او بضع دقائق ٠ فقد استسلمت لهزات الباخرة ٠ كما يستسلم الطفل لهزات المهد ٠ ولم اشعر بمرور الوقت ٠ وكل ما شعرت به ٠ هو خمول ممتع ٠ وتراخ لذيذ ٠ ووددت معهما لو استغرق فى نوم عميق ٠ حافل بالاحلام ٠ يستمر الرحلة طولها ٠ فلا اضطر للعودة الى غرفتى

الصغيرة الشبيهة بالتابوت ٠

ومست قدمى حزمة من الحبال فجلست عليها ٠ واغمضت عينى ٠ واسلمت نفسى لنشوة النسيم ٠ ولم البث أن غفوت وتبلدت حواسى ٠ حتى لم اعد اتبين على الصوت الذى يداعب مسمعى هو تردد انفاسى ٠٠ او نبضات قلب الباخرة ٠

وتنبهت أخيرا على صوت سعلة جافة من مكان قريب ففتحت عينى ٠ وكانتا قد الفتا الظلام ٠ ورأيت على مقربة منى بريق عوينات قد انعكس عليها ضوء النجوم الباهت ٠ ومن تحتها جذوة تضطرم ٠ رجحت انها جذوة غليون ٠

وادركت اننى حينما جلست على حزمة الحبال ٠ كنت منصرفا بكل حواسى الى تأمل البحر والنجوم ٠ فلم أفطن لوجود شخص آخر على مقربة منى ٠ ولا بد أن يكون هذا الشخص قد لزم الصمت والسكون طول الوقت فلم أشعر به ٠

ولم تكن حواسى قد تنبهت تماما من تلك الاغفاءة ٠ وخالجنى فى ذات الوقت شعور غامض باننى دخيل على هذا الشخص ٠ واننى اقحمت نفسى فى خلوته اقحاما ٠ فغمغمت معتذرا باللغة الالمانية وهى لغتى الاصيلة :

ـ أرجو المغفرة

وجاء الجواب فورا ٠٠ بالالمانية كذلك :

ـ لا بأس ٠

كانت مجاملة شاذة تلك التى تبودلت فى الظلام بينى وبين ذلك الشخص الذى لا اعرفه ٠ ولا استطيع أن أراه ٠ وقــد خيل الى أنه يحملق نحوى عبثا ٠ كما احملق نحوه عبثا ٠ فقد كان من المتعذر على كل منا أن يرى وجه الآخر الا ظلا احلك قليلا من الظلام الذى يحيط بنا ٠ ويحتوينا ٠

وأصبح الصمت لا يطاق ٠ ووددت أن أنهض وانصرف ٠ ولم

يمنعني الا يقيني من انني اذا انصرفت دون أن أقول شيئا ، فان أقل ما يوصف به سلوكي هو الغلظة والخشونة .

ولم أجد في حيرتي ما يجب أن أصنع .. فتناولت لفافة تبغ .. واشعلت عود ثقاب ..

واستمر ضوء الثقاب ثانية أو ثانيتين . واستطاع كل منا أن يرى صاحبه ..

رأيت وجها غريبا .. لم يقع عليه بصري في قاعة الطعام أو في الصالون .. أو على سطح الباخرة .. وجها لا أدري .. هل اضطربت تقاطيعه لاضطراب ضوء الثقاب .. أو انني رأيته على حقيقته دميما .. مجعدا كوجه الشيطان ..مهما يكن من أمر فقد خبا ضوء الثقاب وشملنا الظلام مرة أخرى قبل أن أتبين تقاطيع الوجه جيدا .. وعدت لا أرى من زميلي سوى تألق عويناته .. ووهج غليونه .

ولم ينبت ببنت شفة . وبدا الصمت ثقيلا .. قابضا المتنفس .. كقيظ المناطق الاستوائية وضقت ذرعا بهذا الموقف الشاذ، فنهضت وقلت في أدب :

ــ طابت ليلتك .

فجاء الجواب بصوت أجش : طابت ليلتك .

وما كدت أسلك طريقي بين أكوام الحبال حتى سمعت ورائي وقع خطوات سريعة مترنحة .. فأدركت أن رفيقي يجد في أثري .. وشعرت ــ وان لم أره ــ بانه قلق مضطرب .

قال بسرعة : معذرة .. أريد أن أسالك معروفا .. انني .. انني ..

وتردد لحظة ، ثم استطرد :

ــ ان لدى من الاعتبارات الخاصة ما يحملني على اعتزال الناس في هذه الباخرة .. بسبب الحداد .. ولهذا لم أتعرف الى

أحد .. فيما عداك طبعا .. واني أريد .. وأكون شاكرا لك لو عنيت بأن لا تذكر لكائن من كان أنك رأيتني هنا .

ان البواعث لى على اجتناب الحياة العامة في هذه الباخرة شخصى بحت كما قلت لك ، وسيؤلمني كثيرا أن تبدر منك كلمة تنم عن وجودي هنا .. وخروجي لسطح السفينة تحت جنح الظلام . انني ..

وتريث ، فرحت أطمئنه وأؤكد له أن رغبته ستكون موضع الاحترام ، وانني في هذه الباخرة عابر سبيل ، وليس لى فيها رفاق او أصدقاء أبادلهم الحديث وأكاشفهم بأمره

فشد على يدى شاكرا ، وقصدت الى غرفتي .. وحاولت أن أنام بقية الليل ، ولكن نومي كان مضطربا ، تتخلله الأحلام المزعجة .

- ٢ -

ولم احنث بوعدى له ، ولم أحدث احدا عن هذه المقابلة العجيبة ، وان تكن بواعث الحنث ومغرياته كثيرة قوية .. ففى البواخر وسط البحر ، تتجسم الانباء التافهة وتتضاعف اهميتها .. فاذا بدا فى الافق شراع .. او قيلت نكتة جديدة، او ظهر عاشقان جديدان سرى النبأ بين المسافرين جميعا كالبرق .. ولاكته الالسن ، وتشدقت به الافواه .

ولقد ملأنى هذا المسافر الغريب الاطوار فضولا .. فجعلت افحص قائمة المسافرين عسى أن اقع فيها على اسم ينطبق عليه وبلائمه .. وذهبت أتأمل وجوه القوم واعجب : ترى هل يعرفون شيئا عنه .. وقضيت النهار كله قلقا متوتر الاعصاب .. انتظر هبوط الليل بفروغ صبر على امل ان أراه مرة اخرى

ذلك لان الاحاجى والالغاز السيكولوجية كانت دائما تثيرنى وتفتننى . فاذا وقعت على شىء غامض تلهبت شوقا الى كشف سره .. واماطة اللثام عنه .. وتكون لهفتى على ذلك أشد وأقوى من لهفة الرجل على امتلاك امرأة بعينها .

لذلك خيل الى ان النهار طويل لا ينصرم .. فقصدت الى فراشى فى ساعة مبكرة .. وانا واثق من ان الهاما داخليا سوف يوقظنى فى الوقت الذى استيقظت فيه فى الليلة السابقة .. ونظرت الى ساعتى فاذا هى الثانية فاسرعت توا الى سطح الباخرة .

ولعلك تعلم ان جو المناطق الاستوائية قلما يتبدل خلافا لأجوائنا الشمالية . وقد كانت تلك الليلة شبيهة بسابقتها فهى مظلمة تتلألأ فيها النجوم . اذن لم يتغير شىء مما يحيط

بى ، انما تغير ما بنفسى فلم أحس كما احسست فى الليلة السابقة بخمول وتراخ ورغبة فى أن انام واحلم .

كان كل ما أشعر به هو حافز خفى يجذبنى الى مقدم الباخرة لأرى ، هل أعاد المسافر الغامض سيرته الاولى وجلس على حزمة الحبال صامتا وحيدا كما كان يجلس فى الليلة السابقة ؟!

ورضخت لهذه القوة الجاذبة ، بنفس تتنازعها عوامل الحياء والفضول .. وما كدت ادنو من مقدم الباخرة حتى رأيت ما خيل لى أنه عين ملتهبة تتلظى

ذلك كان لهب غليونه .

اذن فهو هنا

ووقفت على الرغم منى ، وهممت بان انكص على عقبى ، ولكن الرجل نهض من مكانه واقترب منى وقال معتذرا بصوت فاتر لا حياة فيه :

ـ معذرة .. يخيل لى انك اردت الجلوس فى مكانك المألوف ولكنك هممت بالعودة حين ابصرت بى فتفضل واجلس سأنصرف

فاجبته فى الحال قائلا انى انما اردت العودة لكيلا ازعجه . ورجوته فى ان يبقى ولا ينصرف .

فقال فى شىء من المرارة :

ـ كلا .. انك لا تزعجنى .. الامر على عكس ما تظن .. فانه يسرنى ان اتحرر من الوحدة بعض الوقت . فقد مرت بى ايام وايام دون ان اتحدث الى انسان .. أيام كأنها سنون .. حتى اصبحت اشعر بان لا طاقة لى على الاحتمال اكثر مما احتملت .. ولا قدرة لى على احتزان اكثر مما اختزنت .. لقد تعبت من الانطواء على نفسى كل هذا الوقت !

وليس فى مقدورى ان اقبع فى غرفتى الى الأبد .. فانها

أشبه بعرف السجون .. وليس في مقدوري كذلك أن امتزج بسائر المسافرين .. فانهم لا يكفون عن الثرثرة والضحك . وعبثهم الذي لا ينقطع يخرجني عن طوري . ويلعب بصوابي .. ان جلبتهم تصل الى غرفتي فاضع أصابعي في اذاني وهم طبعا لا يعلمون انني أسمعهم .. وأنهم يزعجونني .. ولو علموا ما تغير في الأمر شيء .. فهم غرباء عني .. وانا عنهم غريب .

ورفع رأسه فجاة وقال :

ـ ولكني اشعر بأني أضايقك .. فما علمت أن أكون ثرثارا وأجني قامته ، وهم بالرحيل ولكني الحفت عليه في البقاء . قلت :

ـ انك لا تضايقني على الاطلاق .. فليس أحب الى من أن أجد من أتحدث اليه في هذا السكون الشامل .. وتحت هذه النجوم المتألقة .. فهل لك في لفافة تبغ ؟

واشعل اللفافة .. وسقط ضوء الثقاب على وجهه .. والتقت عيناي بعينيه لحظة .. فخيل الى انه يحدجني من خلال عويناته بنظرة فيها غموض .. وفيها استطلاع .. واكثر ما فيها توسل ورجاء ..

واحسست بمزيج من الفضول والرهبة .. فهذا الرجل الذي جمعتني به المصادفة البحتة ، عنده قصة يريد أن يسردها .. ولكن شيئا في قرارة نفسه يمسكه عن الكلام .

ولا شيء غير الصمت من جانبي .. الصمت الذي يوحي الطمأنينة والثقة ، خليق بأن يفرخ روعه ويطلق عقدة لسانه .

وجلسنا على حزمة من الحبال ، واسندنا مرافقنا على حاجز الباخرة . ولم أر في الظلام من دلائل تأثره واضطرابه .. غير ارتجاف لفافة التبغ في يده .

وجعلنا ندخن في هدوء .. وأنا حريص أشد الحرص على أن لا انطق بكلمة . الى أن قطع حبل الصمت بأن سأل :

ـ هل أنت متعب ؟
ـ كلا البتة .
ـ بودي أن اسالك شيئا .

وتردد لحظة قصيرة . ثم استدرك قائلا :

ـ ربما يكون الاقرب الى الصواب والصراحة أن أقول انني أود أن أقص عليك قصة . اني اعلم أن من السخف والهذيان أن أتحدث على هذا النحو الى اول عابر سبيل .. ولكني أصارحك بأنني من الناحية النفسية والعقلية في أزمة بلغت من العنف حدا يحتم على أن انفس في الكلام تسرية وترفيها والا فقدت صوابي . وسوف تدرك السبب متى المت بقصتي .

وطبعا انت لا تستطيع أن تصنع شيئا لمعونتي . ولكن الصمت يستقصي . وانت تعلم كيف يبدو مرضى النفوس في نظر الاصحاء شواذ وحمقى .

لقاطعته متوسلا اليه أن يمضي في قصته دون أن يحزن نفسه بمثل هذه الخيالات والاوهام قلت :

ـ ولا معنى طبعا لأن ابذل لك وعدا بالمعونة والمساعدة دون أن أعرف الموقف على حقيقته .. ولكن لا أقل من أن أؤكد لك رغبتي الخالصة في أن أقدم اليك منهما اقصى ما استطيع . اليس من أول واجبات كل انسان جدير بآدميته أن يبادر الى نجدة انسان مثله ؟ من واجب المرء أن يحاول المساعدة على الاقل ..

وراح يردد كلماتي بلهجة تنطوي على المرارة والسخرية .. وقد أدركت فيما بعد سبب هذه السخرية وتلك المرارة .. ولكن شيئا في صوته جعلني في تلك اللحظة اتساءل .. ترى

هل الرجل ثمل أو به مس من الجنون ؟؟
ولعله ادرك ما دار بخلدي .. لأنه مضى يقول بصوت هادئ .. وبلهجة عادية :

ـ ربما حسبتني معتوها .. أو ثملا .. ولكني لست هذا ولا ذاك .. نعم .. انني لم اجئ بعد انما اثارتني كلمة سمعتك ترددها .. واثارتني المناسبة التي رددت فيها هذه الكلمة .. اعني كلمة « الواجب » .

هذه الكلمة قد اصابت من نفسي مكانا شديد الحساسية .. ولا ريب أنه سيدهشك أن تعلم أن ما يقضني ويؤرقني ويكاد يذهب بصوابي .. ليس في الواقع الا مسألة واجب ..

واحسب أنه شعر .. في تلك اللحظة بأن قد آن له أن يتكلم بمزيد من الوضوح والجلاء .. لانه اعتدل في جلسته فجاة وقال :

ـ يجب اولا أن تعلم أنني طبيب .. فهذه نقطة حيوية في قصتي ..

والطبيب كثيرا ما تعرض له حالات .. لا يكون واجبه فيها من الوضوح كما تتصور .. حالات دقيقة لك أن تسميها حالات الحدود .. لأنها تقع في مفترق الطرق بين واجبات مختلفة ، او تقع على الحد الفاصل بين واجب وآخر .

في مثل هذه الحالات .. لا يجد الطبيب امامه مجرد واجب واحد واضح المعالم .. بل يجد طائفة من الواجبات المتنافرة .. فواجبه حيال الانسانية .. قد يتعارض مع واجبه للمهنة .. والواجبان معا .. قد يتنافران مع ما ينبغي للقوانين الاجتماع والدولة من الاحترام .

كنت تتحدث من لحظة عن النجدة .. وعما ينبغي أن يتوفر للانسان الجدير بآدميته وانسانيته من شعور طبيعي ورغبة غريزية في تأمين الخائف .. وطمأنة الحائر واغاثة الملهوف .

وهذا كله حسن ولكنه ينهض كله على قواعد نظرية .. اما من الناحية العملية .. فاننا يجب أن نتساءل .. الى أي حد ينبغي أن نتعب في مساعدة الغير والاخذ بيدهم .. واليك مثلا من نفسك .. فانك صادفتني تحت جنح الظلام .. وعلى الرغم من انك لم ترني قبلا .. ولا حق لي عندك ، ولا سلطان لي عليك .. فقد رجوتك أن تكتم أمري .. ولا تذكر لاحد انك رأيتني .. ففعلت .. لا لشئ الا لانك أحسست بأن من واجبك أن تساعدني على الوجه الذي أردته .

ثم قابلتني للمرة الثانية .. فرجوتك أن تسمح لي بالتحدث اليك .. لأن الصمت يأكل قلبي .. فتفضلت واصغيت الى .

وقد كان ذلك سهلا وبسيطا .. لانني لم اسألك شيئا معقدا .. او عسيرا .. ولكن هب أنني قلت لك : احملني واقذف بي الى البحر ؟! أفلا يكون ذلك ارهاقا لصبرك .. وسعة صدرك ؟ أفلا يكون تجنيا على روح النجدة الكريمة التي تعتلج في نفسك ؟ أفلا يكون جوابك التمرد والرفض ؟! ستشعر في الحال بانني اطالبك بشئ يتعدى واجب النجدة والمعونة .. أليس كذلك ؟ اذن ينبغي أن يكون للواجب حد .. وحدود الواجب تبدو واضحة جلية حين يجد الانسان أن حياته تستهدف للخطر او انه سيتورط على مسئوليته الخاصة في خرق القواعد المقررة والقوانين المرعية .

ولكن .. هل يمكن أن تطبق هذه النظرية على الطبيب ؟ على يمكن أن يكون لواجب النجدة عند الطبيب حد ؟ او ينبغي أن يلعب الطبيب دور المنقذ على طول الخط .. لا لشئ الا لانه يحمل دبلوما باللغة اللاتينية .. فيورد نفسه موارد الهلكة .. لمجرد أن انسانا توسل اليه .. واستنجد بمروءته وانسانيته وطيبة قلبه !

وصمت لحظة ثم استطرد :

ـ معذرة عما يبدو من تأثري وانفعالي .. فليس السبب

انني ثمل .. ان الخمر لم تفقدني الوعي بعد .. والحق انني أسرف في الشراب منذ وطئت قدماي ظهر هذه الباخرة .. وكنت أسرف في الشراب في المدة الاخيرة .. فقد كنت احيا في الشرق حياة موحشة مقفرة طيلة السنوات السبع الاخيرة وقد انقطعت الصلة بيني وبين العالم المتمدين .. فلم اكن أرى الا الوطنيين والحيوانات .. وان انسانا يلزم نفسه هذه الحياة .. ويعيش في أوحال هذه البيئة كل هذه السنين .. لخليق ان ينسى كيف ينبغي أن يتحدث في أدب .. حديث عقل وروية .. فاذا سنحت له آخر الامر فرصة الاتصال برجل من قومه .. فلن يكون ملوما اذا أطلق العنان للسانه .. وود أن يفرغ ما في جعبته في لحظة .

والآن .. اين كنت من الحديث ؟! آه .. كنت اوشك أن ألقى عليك سؤالا . كنت أريد أن أسأل ، هل يجب أن يبذل الانسان معونته الى أبعد حد ، كما لو كان ملكا من السماء ؟ ولكني اخشى أن يطول الحديث على هذا النحو ، فهل انت واثق من انك لست متعبا ؟

فاجبت مؤكدا مرة اخرى :

ـ كلا .. البتة .

وخيل الى انه يتحسس شيئا في الظلام ، وسمعت رنينا ، وتبينت زجاجتين لم يلبث أن تناول احداهما ، وسكب منهما في كأس ، وقدمها الى قائلا :

ـ هل لك في قليل من الويسكي ؟

وأردت أن أنادمه ، وأشجعه على الكلام ، فتناولت الكأس واحتسيتها .

ولما لم تكن لديه كأس اخرى ، فانه رفع الزجاجة الى فمه وراح يجرع منها .

وساد الصمت بضع دقائق ، دق ناقوس الباخرة في خلالها خمس دقات ، ايذانا بانتصاف الساعة الثالثة صباحا .

- ٣ -

قال :

ـ أريد أن أضع امامك قضية .. هب أن طبيبا يزاول مهنة في قرية صغيرة من قرى الريف وان هذا الطبيب .

وامسك عن الكلام مرة أخرى وتردد قليلا ثم عاد فاستدرك قائلا :

ـ كلا ، لا فائدة من ذلك . يجب ان اصارحك بكل شيء كما حدث ، وان اسرد عليك القصة من البداية الى النهاية ، والا فلن تفهم الموقف على حقيقته .

نعم سأصارحك بكل شيء في غير خجل أو مواربة .

عندما يأتي القوم لاستشارتي ، فانه يتعين عليهم أن يتجردوا من كل ما يسترهم ، وان يكشفوا لي عن أدق أسرارهم وأخص شئونهم لكي أعرف الداء ، وأصف الدواء .. وقياسا على ذلك يكون من العبث أن أقص عليك قصة أزعم أنها وقعت لطبيب ما ، في مكان ما ، ووقت ما ، بل يجب أن أتجرد امامك من كل ما يسترني ، كما لو كنت المريض ، وأنت الطبيب ، وأحسب انني لن أجد في ذلك عسرا او مشقة ، واحسب أنني قد تجردت فعلا من كل شعور بالخجل واللياقة والاحتشام في ذلك البلد المخيف الذي أقمت فيه طويلا بمنأى عن العالم المتمدين ، ذلك البلد الذي يقتل الروح ، ويفني الجسد ، ويمتص النخاع من العظام .

وصمت .. .

ولا بد أن قد بدرت مني في تلك اللحظة بادرة تنم عن الاحتجاج والاستنكار ، لانه دلف في الحال الى هامش الموضوع بان هتف :

ـ آه .. يلوح لي أنك من عشاق الشرق المتحمسين لشمسه ومعابده ، وتخيله ، ولعلك أن تكون قد امتلأت اعجاباً بسحر المناطق التي مررت بها في رحلة لاهية وربما لم تستغرق شهراً أو شهرين ولست أنكر أن المناطق الاستوائية فتنتها ، اذا مر بها الانسان متمحلاً في قاطرة ، أو سيارة أو مركبة ، فلقد أخذتني هذه الفتنة عندما جئت لاول مرة منذ سبع سنوات ، كنت مفتوناً بالاحلام الساحرة ، والامال المشجعة ، وكنت مزمعاً أن أتعلم لغة الاهلين ، وأقرأ الكتب المقدسة ، وأتوفر على دراسة الامراض المتوطنة ، وأتغلغل في البحوث العلمية ، وأدرس أخلاق الوطنيين ، وأعرف علمهم الاجتماعية والنفسية . وبالاختصار ، أجعل من نفسي سفيراً للمدنية في هذا الشرق القصي .

تلك كانت آمالي ، وأحلامي .

ولكن الحياة في الشرق ، كالحياة في أتون من زجاج لاترى جدرانه ، فانت لا تلبث أن تفقد نشاطك وحيويتك .. ومهما تناولت من (كينين) فلا تلبث أن تصاب بحمى الملاريا ، ولا تلبث الحمى أن تتركك خاملاً ، منهوك القوى ، خائر العزيمة . ولابد للاوروبي الذي يجازف بالاقامة في القرى النائية وسط الغابات والاحراش والمستنقعات بعيداً عن المدن الكبيرة ، أن يخرج عن أطواره ويفقد سيطرته على نفسه ، كالسفينة التي يتحطم سكانها في عرض البحر .

انه يفقد صوابه عاجلاً أو آجلاً ، فيسرف في الشراب على الرغم منه أو يتعلم من الصينيين أكل الافيون وماليه من المخدرات والمكيفات ، او يلجأ الى غير هذا وذاك من ضروب العبث الذي يقتل الجسد ويميت الروح .

يا الهي .. كم يحن الانسان ويتشوق الى وطنه وقومه !

وكم يتمنى أن يسير في شوارع حقيقية حافلة بالناس ، ويجلس في بيت مؤثث ، وراء نوافذ من زجاج ، بين نساء ورجال من البيض ، يفهمون لغته ، ويفهم لغتهم .

هكذا تمر الايام والشهور والاعوام ، حتى يحين موعد الاجازة فاذا الانسان محطم الاعصاب خامل الذهن ، خائر الحيوية ، واذا هو لا يقوى حتى على مجرد التفكير في الافلات بعض الوقت من تحت الثقل الذي يرزح فوق جسمه وحواسه .

وبعد ، فما الفائدة ؟! .. انه يعلم أن أقرب الناس اليه في وطنه قد نسيه ، وانه اذا عاد الى مسقط رأسه فلن يلقى من يرحب به ، وليسوا من ذلك ـ كما هو حال ـ أن ينكره أهله ويتجاهلوا عودته ، وهو لذلك يؤثر البقاء حيث هو ، في مستنقع يزخر بالجراثيم ، أو غابة تزخر بالوحوش والحشرات لقد كان يوماً مشئوماً ذلك اليوم الذي بعث فيه نفسي للعبودية في المناطق الاستوائية

أضف الى ذلك أن انتقال اجازاتي لم يكن أمراً اختيارياً كما قد تفهم من حديثي

انني تعلمت الطب في وطني المانيا ، ولم أكد أحصل على اجازة الطب ، حتى أسند الي منصب في أحد مستشفيات (ليبزج) ، ولو قد رجعت الى النشرات الطبية في ذلك العهد لوجدت أن ثم علاجاً ابتكرته لبعض الامراض الشائعة قد أثار غير قليل من الاهتمام . وانني برغم حداثة سني وحداثة عهدي بالمهنة ، قد كنت وقتذاك محور أحاديث كثيرة ، وموضع آمال واسعة ، الى أن صادفني حادث غرامي ، أفسد علي أمري وقضى على مستقبلي وما كان يرجى لي ومني .

كان الطرف الثاني في هذا الحادث امرأة تعرفتها في المستشفى وكانت هذه المرأة تعاشر رجلاً بلغ سيطرتها عليه . وعينهـا

بقلبه وعقله ، انه اطلق الرصاص على رأسه قاصدا الانتحار · ولكن الرصاصة لم تصرعه ·· فحمل الى المستشفى · واختلفت المرأة الى المستشفى للاطمئنان على فريستها ، وهي لا تدري بأن ستكون لها في المستشفى فريسة أخرى ·

كلفت اذن بهذه المرأة · وكان عبثها بقلبي وعقلي اشبه واقسى من عبثها بصاحبها الاول ·

كانت تصطنع ضروبا من الفتنة ، والتمنع والفتور تضرمني اضراما · وقد كنت دائما عبدا طيعا لهذا الطراز من النساء ·· ولكن هذه المرأة استطاعت ان تصنع بي ، مالم تصنعه غيرها من النساء ·· ومالا تستطيعه كل النساء مجتمعات · انها وضعتني تحت قدميها · ولعبت بي ·· بكل أنملة من أناملها

كنت أطيعها ، والبي مطالبها ، وافعل في سبيلها ما استطيعه ومالا أستطيعه ·· وفي النهاية وهو يؤلمني الاعتراف به رغم مضي ثمانية اعوام – سرقت من اجلها بعض المال من خزانة المستشفى · وافتضح الامر ·· وكان لابد ان يفتضح · وتقدم عمي فرد المال · ولكن مستقبلي في ليبزج كان قد انتهى ·· ودمغتني هذه الفضيحة الى الابد ·

واتصل بي في ذلك الوقت ان الحكومة الهولندية تفتقر الى اطباء لمستعمراتها · وانها لا تتحرج من استخدام الاطباء الالمان وانها تعرض فعلا مرتبات ضخمة ، ومكافآت مغرية · وادركت أن وراء هذه المرتبات والمكافآت الضخمة ماوراءها · وكنت اعلم تمام العلم ان الحمى في الاقاليم الاستوائية تتكاثر وتنمو بسرعة النباتات الطفيلية ·· ولكن الانسان عندما يكون في مقتبل العمر وشرخ الشباب يعتقد ان الحمى والموت خليقان أن يمرا به مر الكرام ·· وأن ينزلا بغيره من الناس ولا ينزلا به هو ·

وعلى كل حال ، لم يكن لي ان اختار ، فرحلت الى روتردام وابرمت مع المسئولين عقدا بالعمل لمدة عشرة أعوام ، وحصلت سلفا على رزمة ضخمة من الاوراق المالية ، ارسلت نصفها الى عمي في ليبزج ·· وأنفقت النصف الآخر مضافا اليه كل ما استطعت الحصول عليه من نقود · على صبية ·· كل شأنها انها تشبه الى حد ما تلك المرأة الفاتنة القاسية التي كانت سببا في نكبتي وضياعي ·

وهكذا غادرت أوروبا بغير مال او رجاء أو أمل كاذب · بل غادرتها بغير ساعة استطلع فيها الوقت ·· ولا أكتمك أنني لم احزن لمغادرتها ، وقضيت أكثر الرحلة قائما عند مقدم السفينة كما تصنع أنت الآن ، اداعب الامل في أن أجــد في الشرق الفردوس الذي يحلم به كل شاب ، وأن أقع في هذا الفردوس على ما تصبو اليه نفسي من وحدة ·· وسكينة ، في أرض عذراء تحت سماء جديدة

ولم البث ان اخذت حظي من الوحدة ، ذلك لانهم لم يبعثوا بي الى (بتافيا) او (سورابايا) ، او غيرهما من المدن الكبيرة حيث يوجد آدميون ذوو جلود بيضاء ، وحيث توجد منتديات المحولف والتنس ومكتبات الكتب والصحف ، بل بعثوا بي الى مكان ·· لاداعي لذكر اسمه الآن ، في بقعة مقفرة ، على سفر يوم من أقرب مدينة ·

وفي هذه البقعة كان (المجتمع) يتألف من ثلاثة موظفين او اربعة ·· جامدي الذهن ، فاتري العزم ، قد طحنهم الحر وحيرتهم الشمس · ومن اثنين او ثلاثة من الولديين ·· كل أولئك وسط غابات متراميه ·· تحف بها المزارع ، والمستنقعات والادغال

على أن الحياة كانت محتملة في أول الامر وان لم تخل من عسر ·

أحببت فيها بادىء الأمر جدتها وهدوءها ، فأقبلت على القراءة والدرس بعزم لا يلين .

ثم اتفق أن كان الحاكم يقوم برحلة تفتيشية في الاقليم .. فاصطدمت سيارته ، وأصيبت بكسر في ساقه . ولم يكن هناك طبيب آخر على مقربة ، وكان لابد من اجراء جراحة عاجلة ، أو تسوء حاله ، وتبتر ساقه ..

فأجريت له هذه الجراحة بنجاح .. وبرؤ الرجل من اصابته وأجازني بمبلغ جسيم .

وانتقلت بعد هذا الحادث الى هواية السموم .. واسلحة رجال القبائل العريقة في القدم . وما زلت أنتقل من هواية الى هواية لأعوض بها ما فقدت من جدة الحياة التي أحياها .. حتى نفد ما كنت أدخره من النشاط والحيوية . وحينئذ بدأ المناخ يفعل فعله .. فبرمت بالموظفين البيض والمولدين الذين يعيشون معي ومن حولي ، وبدأت أسأم عشرتهم .. وأتنكب مجتمعاتهم .. ثم أقبلت على الخمر أعاقرها . وأسرف منهـا لأغرق الهم ، وأقتل الضجر ، وأصون عقلي من التلف حتى أصل الى بر السلامة .. ألم أصبح من الحرية قاب قوسين أو أدنى ؟ ألم ينقض أو يوشك على الانقضاء أجل العقد المبرم بيني وبين الحكومة الهولندية للعمل في مستعمراتها ! لم يبق الا عامان ..

نعم .. لم يبق الا عامان أنجو بعدهما من هذا الاسر فأعود الى أوروبا ، وأبدأ حياتي من جديد .

والى أن ينقضي العامان .. يجب أن أتجلد ، وأصبر ، وأنتظر

وكان يتعين على أن أظل في الانتظار حتى الساعة ، لولا الحادث العجيب الطارىء الذي سأحدثك بأمره الآن .

وصمت محدثي .. وتلاشى صوته في الظلام

وكان الليل من حولنا هادئا ساكنا . لا يسمع فيه سوى صوت الحركات كأنه صادر من مكان سحيق .

ووددت أن أدخن لفافة تبغ .. لولا أن خشيت أن أزعج محدثي بحركة فجائية . أو أن أبهره بضوء الثقاب .

ودام الصمت ، واستمر وقتا طويلا . بحيث لم أتمالك من أن أسأل نفسي . ترى هل رجع الرجل عن عزمه .. وقرر أنه لا يحدثني بالمزيد .. أو ترى قد أخذته سنة من النوم . فاستسلم بعدها الكرى ؟

واذ بي أضرب أخماسا لأسداس .. اذ بناقوس الباخرة يدق ست دقات ايذانا بالساعة الثالثة ، واذا صاحبي يتحرك في مكانه ، واذا زجاجة الخمر ترتفع الى فمه .

وما أن احتسى كفايته ، حتى استأنف حديثه ، بمزيد من الحماسة ، ومزيد من الانفعال قال :

ــ وهكذا كانت الامور .. ومرت بي الشهور تأخذ برقاب بعضها وأنا عاطل في تلك البقعة الملعونة ، جامد جمود العنكبوت وسط خيوطه .

وانقضى موسم الامطار .. بعد أسابيع طويلة لم أسمع خلالها غير تدفق الماء فوق سطح غرفتي ولم أر فيها أحدا غير الخادم الذي يشرف على شئوني ، ولم يكن لي فيها أنيس غير الخمـر والكأس .

واشتد بي الحنين الى وطني شدة لا عهد لي بها ، فاذا قرأت قصة عن الشوارع الحافلة والبيوت الضيئة ، والنساء الاوروبيات يدق قلبي ، وارتجفت أصابعي ، وملكني الاضطراب .

وأنت كسائح ، تضرب في الارض على هواك ، ليس في وسعك أن تعرف البلاد كما يعرفها الذين يعيشون فيها ، فالرجـل الابيض يصيبه في بعض الاحيان من هذه الحياة المقفرة الموحشة

ما يجوز لك أن تسميه مرضا استوائيا .. انه يصاب بنوع من التوتر العصبي ، يدفعه الى الهذيان او الجنون

وقد اتفق لي في ساعة هذيان ، وانا عاكف على احدى الخرائط الجغرافية أبحث عن مواقع المدن والبحار ، واحلم بالرحلات الممكنة والمستحيلة ، ان جاء خادمي مسرعا وهو مفتوح الفم دهشة وعجبا .. فقال لي ان بالباب سيدة — سيدة بيضاء — تريد أن تراني .

وكانت دهشتي وعجبي لايقلان عن دهشته وعجبه . ذلك لانني لم أسمع صوت مركبة او سيارة تقف بالباب ، اذن كيف جاءت هذه السيدة البيضاء .. وما الذي حملها على ارتياد هذا المكان القفر اللعين !!

وكنت وقتئذ جالسا في غرفة بيتي الصغير الذي يتألف من طابقين ، ولم يكن ثوبي مما يليق للظهور بهامام شخص اوروبي .. فضلا عن سيدة أوروبية ، فاستنجدت بما تبقى لي من نشاط وحيوية .. واستبدلت ثيابي في دقيقتين او ثلاث ، وكانت هذه المدة على قصرها كافية لان استجمع قواي وعزيمتي .. وافيق الى حد ما من خمول اليأس .. ونشوة الخمر .. ولما شرعت أهبط درج السلم كنت متيقظا مرهف الحس ، ولكني قلق مضطرب ، اشعر شعورا مبهما بشر قريب ..

وذهبت أسال نفسي وأنا اهبط السلم .. ترى من تكون هذه الزائرة ؟ وما الذي حملها على زيارتي في جحري ؟ أنا واثق من انه ليس لي في هذه البلاد التي غفلت عنها الملائكة والشياطين صديق او صديقة يفكر في زيارتي والاستفسار عني ..

وجدتها جالسة في قاعة الانتظار .. وقد وقف خلف مقعدها غلام صيني .. رجحت ان يكون خادمها .

وما أن دخلت .. حتى وثبت لتحيتي .. وعندئذ لاحظت انها تضع على وجهها نقابا كثيفا يحجب ملامحها ..
وبدأت تتكلم ، قبل أن أتمكن من أن انطق بكلمة ، قالت بالانجليزية :

— طاب يومك يا سيدي الطبيب .. ومعذرة عن هذه الزيارة التي لم يسبقها موعد

قالت ذلك بسرعة .. وبلهجة من يردد كلاما أعده سلفا ، وحفظه عن ظهر قلب .
استطردت :

— كنا نمر بالسيارة على مقربة من هنا ، واضطررنا أن نتوقف قليلا ، وحينئذ تذكرتك وتذكرت انك تقيم في هذه المنطقة ..

وحيرني هذا اللغز الجديد ، اذا كانت قد قدمت في سيارة ، فلماذا لم تصل بها الى باب البيت ؟
قالت :
— لقد سمعت عنك ثناء كثيرا .. بمناسبة الجراحة البارعة التي أجريتها للحاكم .. يوم أصيب في حادث السيارة .. اني قابلته منذ بضعة ايام .. وكان يلعب (الجولف) بمهارة ، كما لو لم يصب قط بكسر ساقه ، والحق .. ان اسمك على كل لسان في العاصمة .. وكلنا تمنى لو يتاح لنا الاستعاضة بك عن كبير الاطباء .. ذلك الطاووس العجوز ، الذي لا يصلح لشيء .. ولكن لماذا لا تأتي الى العاصمة يا دكتور ؟ .. انك تعيش هنا وحدك ، عيشة الزاهد الناسك .

واستمرت تتكلم ، وتتكلم ، ولا تدع لي فرصة انطق فيها بكلمة .

وكان من الواضح ان تدفقها وثرثرتها هما نتيجة حالة عصبية ، لم تلبث عدواها أن انتقلت الى بدوري ، فأحسست

بمزيد من القلق وتوتر الاعصاب ، وذهبت أسائل نفسي .. ترى ما معنى كل هذا .. ولماذا لا ترفع نقابها .. أهي محمومة؟ أهي مجروحة ؟

وأعياني التفكير في أمرها ، فوقفت مشدوها ، شارد اللب .. أصغي اليها ، ولا أكاد أعي كلمة من حديثها . الى أن قالت كل ما عندها ، ونضب معينها ، وعندئذ فقط استطعت أن أتكلم وادعوها للصعود الى مكتبي في الطابق الثاني ، فأومأت الى خادمها أن يبقى حيث هو ، ثم شرعت ترقى السلم امامي ..

هتفت وعيناها تطوفان بأرجاء الغرفة :

ـ ما أبدع هذا المكان وما أجمل هذه الكتب ! كم أتمنى لو أستطيع قراءتها جميعا !

وسارت الى خزانة الكتب .. وراحت تفحص أسماء الكتب والمجلدات ..

ولأول مرة منذ وقع بصري عليها .. لزمت الصمت فترة من الوقت .

سألتها :

ـ هل لك في قدح من الشاي ؟!

فأجابت دون أن تتحول الي :

ـ كلا .. شكرا لك .. ليس لدي متسع من الوقت .. ما هذا ؟ قصة (مدام بوفاري) !! يالله .. ما أروعها !! اذن أنت تعرف اللغة الفرنسية كذلك .. عجبي لكم أيها الالمان .. انكم تتعلمون جميع اللغات في غير عسر أو مشقة .. فما أبدع أن يستطيع الانسان التحدث بشتى اللغات بمثل الطلاقة التي بها تتحدثون .. لقد أقسم الحاكم ليرفضن أن يمس جسده مبضع غير مبضعك .. والحق .. ان كبير الأطباء في مستشفى العاصمة لا يجيد عمله كما يجيد لعب الورق .. أما أنت ..

لقد خطر لي اليوم أن أستشيرك .. وعندما مرت السيارة بالقرب من هنا قلت لنفسي : هذه فرصة يجب أن أنتهزها .. فربما لا أجد خيرا منها ..

ولكني أعتقد انك مشغول جدا يا صديقي الطبيب ... أفلا ترى من الافضل أن أعود اليك في يوم آخر ؟! .

قالت كل ذلك دون أن تنظر الي .. ودون أن تحول وجهها عن خزانة الكتب .

وكدت أن أصيح بها : كفى عبثا ورياء .. خففي وزقك على المائدة .. واكشفي عن خبيئة نفسك ..

ولكني ملكت أعصابي .. وكتمت فضولي وانفعالي .. ورحت أؤكد لها انني في خدمتها .. الان ، وفي أي وقت آخر .. على ما تريد ..

فدارت على عقبيها نصف دورة ، وانحرفت نحوي قليلا .. ولكنها لم تنظر الي .. بل قالت وهي تتصفح كتابا تناولته من مكانه :

ـ حسنا .. ليكن ذلك الان .. ما دمت قد جئت ، ان الامر ليس على شيء من الخطورة انه مجرد اضطراب كالذي [illegible] النساء في أغلب الاحيان ، دوار .. والغماء .. ونفور من الطعام وقد حدث اليوم عندما انحرفت السيارة في أحد المنحنيات ان فقدت الرشد فجأة .. واغمي علي اغماء تاما ، ولولا ان امسك بي الخادم لسقطت من مكاني .. ولم أستعد [illegible] وعيي بعد أن أسعفني الخادم بقليل من الماء .. ولكني أعتقد ، ان السائق كان مسرعا ، أفلا تظن ان ذلك هو السبب يا دكتور؟!

ـ ليس بوسعي أن أجيبك ارتجالا . هل أصابك مثل هذا الاغماء مرارا قبل ذلك ؟!!

ـ كلا ، أعني لم أصب بمثل ذلك قبل بضعة الاسابيع

الأخيرة ، ثم انني أشعر كل صباح بدوار لا أفهم له سببا ..

وعادت الى الخزانة ، وتناولت كتابا آخر ، وراحت تقلب صفحاته ببطء ، والعام .

يا الهي .. ما معنى هذا السلوك الغريب ؟! ولماذا لا ترفع نقابها ، وتطالعني وجها لوجه ؟!

وتعمدت ألا أجيبها .. ولذ لي أن أدعها تنتظر وتترقب .

نعم .. اذا كان في مقدورها أن تبدو شاذة غامضة..غريبة الاطوار .. فلماذا لا أحذو حذوها ؟!

قالت أخيرا .. في فتور وقلة اكتراث :

– لا أعتقد ان في الأمر خطورة .. أليس كذلك يا دكتور ؟! من المؤكد ان ما بي .. ليس من الامراض الاستوائية الوبيلة

– يجب أن أرى أولا هل انت مصابة بحمى..دعيني أفحص النبض ..

واقتربت منها .. ولكنها هتفت :

– كلا .. كلا .. أنا واثقة من انني لست مصابة بحمى .. انني أفحص النبض وارقب الحرارة كل يوم .. منذ اصابني هذا الاضطراب .. وأؤكد لك ان النبض والحرارة عاديان .. وان حركة الهضم منتظمة كل الانتظام .

واثار سلوكها العجيب ريبتي .. وايقنت انها ترمي الى شيء بعينه .. فهي بغير شك لم تقطع بسيارتها الى هذه البقعة النائية مالتي ميل واكثر لكي تتصفح كتبي .. وتعبر عن اعجابها بقصة (مدام بوفاري) ....

ولزمت الصمت دقيقة أو دقيقتين .. ثم قلت :

– معذرة يا سيدتي .. هل تسمحين بان القي عليك بعض الاسئلة الصريحة ؟!

فأجابت ببساطة :

– طبعا .. طبعا .. ذلك من حقك كطبيب ..

ولكنها أشاحت بوجهها مرة أخرى وراحت تعبث بالكتب . سألتها :

– هل رزقت أولادا ؟!

– نعم .. ولد واحد .

– وهل شعرت في الشهور الاولى من الحمل بمثل الاعراض التي تنتابك الآن ؟

– نعم ..

وقد جاء هذا الجواب حاسما وصريحا .. وبلهجة جدية .. تختلف كل الاختلاف عن لهجتها الاولى حين كانت تتكلم لمجرد الرغبة في الكلام .

قلت :

– اذن .. ألا يمكن أن يكون الحمل هو السبب في هذه المرة أيضا ؟!

– نعم ..

وكان جوابها في هذه المرة أيضا حاسما وصريحا .

قلت :

– ربما يكون من الخير أن أفحصك لاقطع الشك باليقين..

وعندئذ فقط تحولت الى وواجهتني .. واحسست بأنها تحدجني من وراء نقابها بنظرة ثاقبة .. كأنما تريد أن تصل الى قرارة نفسي .. وقالت :

– لا ضرورة لذلك يا دكتور .. فليس يخامرني في الامر شك .. أو ظل شك ..

- ٤ -

وهنا صمت محدثي .. ورفع الزجاجة الى فمه .. ينتهل من سائله المحبوب الذي يحفزه .. ويشحذ ذهنه ، ويطلق لسانه ..

ثم مضى يقول :

ـ ولك أن تتصور هذا الموقف ، فأنا رجل فرضت على نفسي أو فرضت الظروف على كل ضروب الحرمان في هذا المكان السحيق ، واذا بامرأة تأتيني فجأة،لا أدري من أين ، هي أول امرأة بيضاء يقع عليها بصري منذ سنين ، واذا أنا أشعر بأن شرا مستطيرا أو خطرا داهما ، قد اقتحم على بيتي ، واذا أنا أنكمش في نفسي ازاء ما أرى من جرأتها،وقوة ارادتها،وصلابة عزمها ..

لقد خيل الى أول الامر انها جاءت تبغي العبث والثرثرة وقتل الوقت بكلام لا أهمية له ولا خطر ، ثم اذا هي تقذفني فجأة ، وبغير انذار بطلب كان أهون منه لو قذفتني بخنجر..

كان الشيء الذي تطلبه مني واضحا غاية الوضوح ، صريحا كل الصراحة . ولم تكن هي أول امرأة تقدمت الى بمثل هذا الطلب ، ولكن غيرها من النساء كن يتوسلن الى . والدموع تنهمر من مآقيهن أن امد اليهن يد المعونة ، وأنقذهن من ورطتهن ، ولكن هذه المرأة ذات الارادة الفولاذية تختلف عن كل من رأيت من النساء في مثل هذا الموقف ، ولقد أحسست منذ البداية بأنها أقوى مني خلقا، وأصلب ارادة وأشد عزما وانها لذلك كله خليقة أن تطويني لارادتها ، وتصنع بي ما تشاء ..

قلت في أول الحديث انني شعرت بأن هذه الزائرة تتأبط

شرا ، ثم أدركت أن هذا الشر يتجاوب صداه في جوانب نفسي أنا أيضا ، ولم ألبث ان أحسست بالمرارة والوحدة ، وشعرت بأنني أمام غدر متحفز ينبغي لي أن أتوقى عجائبه ، بكل ما أوتيت من قوة وبأس ..

لزمت الصمت بضع دقائق عامدا ، وخيل الى انها ترمقني من وراء نقابها وأنها تتحداني ، وتريد أن ترغمني على الكلام ولكني لم أكن متأهبا للنزول على ارادتها ..

وعندما تكلمت أخيرا ، كنت حريصا أشد الحرص على أن أراوغ ، فلم أتناول جوهر الموضوع ، وانما تناولت حواشيه ولففت حوله ، كان حديثي سخرية لاذعة ، وتهكما مرا على ما تصطنع من صلف وقلة اكتراث ، فزعمت انني لم أفهم جيدا ماذا تريد ، وأومأت ايماءة بعيدة الى أن الصراحة في مثل هذه الامور أنفع وأجدى ..

والواقع ، انني لم أشأ أن أقابلها في منتصف الطريق ..

كنت أريدها على أن ترجو وتتوسل .. كما توسلت غيرها من قبل .

كنت أريدها على أن تفعل ذلك لسبب لعله أن يكون هذا الغرور الذي يبدو في سلوكها ، ولعله أن يكون هذا الضعف الذي أشعر به أمام قحتها وصلفها وقوة ارادتها ..

وهكذا مضيت أراوغها ، وأقول لها ان هذه الاعراض ليست ذات بال .. وان الدوار والاغماء هما من مستلزمات الحمل في أدواره الاولى .. وانهما لا ينبئان بشر ، بل على العكس ، يدلان على أن كل شيء يسير على ما يرام..وضربت لها الامثلة من حالات شهدتها ، وحالات قرأت عنها ، وتناولت الموضوع كله على أنه من البساطة بحيث لا ينبغي أن يثير حزنها أو يجشمها مشقة القدوم الى عيادتي مرة أخرى ، وما زلت الكلم،

وأتكلم ، على هذا النحو ، وأنتظر بين لحظة وأخرى أن تقاطعني لأنني كنت واثقا من أنها ستقاطعني ، وأنها ستصرح آخر الامر بما تريد ..

وقد حدث ما توقعت ، فانها لم تلبث أن لوحت بيدها ، وكأنها تكنس كلماتي من الفضاء كما تكنس شيئا خبيثا يؤذي حواسها وقالت :

ـ ليس ذلك ما يزعجني أيها الطبيب ، انما يزعجني انني لست من القوة ولا في مثل الصحة ، كما كنت عندما حملت أول مرة ، انني معتلة القلب ..

فقلت وأنا أصطنع قلقا لا وجود له :

ـ معتلة القلب ؟! هذا خطير ، يجب أن أفحص قلبك في الحال ..

ومددت يدي لأتناول السماعة ، ولكنها منعتني مرة أخرى ، وقالت بلهجة ، أشبه بلهجة القائد حين يأمر جنوده :

ـ متى قلت لك انني معتلة القلب فيجب أن تصدقني ، ولا تضيع وقتي ووقتك في فحص لا ضرورة له ، وبعد ، فأحسب انه ينبغي عليك أن تبدي مزيدا من الايمان بصدق ما أقوله لك ، انني أضع فيك كل ثقتي ..

كان ذلك بمثابة اعلان الحرب ، وقد قذفتني بقفازها فلم أتردد في التقاطه ..

قلت :

ـ ان الثقة توحي بالصراحة ، وبالصراحة التامة ، فهل لك أن تحدثيني عن غرضك في غير مواربة ؟! وقبل كل شيء ، أرجو أن ترفعي نقابك .. وتجلسي .. دعي هذه الكتب وضعي ورقك على المائدة .. ليس من المألوف أن يلجأ الانسان الى الطبيب وعلى وجهه نقاب .

وقبلت بدورها هذا التحدي ، وجلست على مقعد أمامي ورفعت نقابها .

وحينئذ رأيت وجها ، من تلك الوجوه التي أخافها وأرهبها ، وجها كاملا لا عيب فيه ، وجها تخضع كل لمحة من ملامحه ، وكل قسمة من قسماته لارادة صاحبه ، وجها من تلك الوجوه الانجليزية الجميلة النادرة ، التي لا يذبل الزمن نضرتها ، ولا تنال الايام من فتنتها .

على أنها كانت لا تزال في مقتبل العمر ، ولها عينان سنجابيتان عميقتان ، تعبران عن قوة الارادة والثقة بالنفس ، كما تعبران عن عاطفة مستعرة وحس مرهف .

أما شفتاها .. فكانتا رقيقتين ، مطبقتين ، من تلك الشفاه التي لا تنطق ولا تتحرك ، الا كما يريد صاحبها .

ومرت بنا دقيقة كاملة ، تبادلنا فيها نظرة طويلة فاحصة ، فاما نظراتها فكانت نظرة الآمر المتسائل .. نظرة قاسية باردة كالثلج ، لم أقو على احتمالها طويلا ، فنكست برأسي .

وراحت تنقر بأناملها على المنضدة نقرا ، اذا دل على شيء ، فعلى أنها لا تقوى ـ برغم ارادتها القوية ـ على ضبط شعورها ، والسيطرة على أعصابها ..

وقالت فجأة :

ـ والآن .. ترى هل فهمت ما أريد أو لم تفهم ؟!

فاجبت : بل يخيل الي انني فهمت ، فلنتكلم في صراحة ووضوح ، انت تريدينني على أن أضع حدا للحالة التي تعانينها ، تريدينني على أن أزيل الدوار والاعياء اللذين يصيبانك بين وقت وآخر بازالة أسبابهما ، أليس كذلك ؟!

ـ نعم ..

وجاءت هذه الكلمة حاسمة ، كسقوط سكين المقصلة .

قلت :

– وهل تعلمين أن لذلك خطورة ، بالنسبة لكليا ؟!

– نعم ..

– وان هذه عملية غير مشروعة !!

– أعلم ذلك ، ولكنى أعلم أيضا ان ثمة ظروفا تجيزها ، بل وتحتمها .

– يجب لذلك ان تكون البـــواعث قوية ، يؤيدها الفحص الطبي .

– عليك أن تجد هذه البواعث ، انك طبيب .

ونظرت الى دون أن يهتز لها هدب ، كما لو كانت تصدر لى أمرا لا يقبل نقضا ، ولم أتمالك ، أنا الضعيف الارادة الخائر العزيمة الا أن أرتجف هلعا أمام تصميمها وصلابة عزمها .

ومع ذلك فقد قاومت لكيلا أشعرها بقوتها وضعفى .

قلت لنفسى : « يجب الا أرضخ بهـذه السهولة ، يجب أن أضع أمامها العقبات ، وأرغمها على التوسل » .

ثم قلت لها : ليس فى استطاعة الطبيب فى كل الحالات أن يجد البواعث القوية التى تبرر هذه العملية غير المشروعة ، على أننى لا أرى مانعا من استشارة أحد الزملاء .

– لا أريد أن أقحم فى هذا أحدا من زملائك ، لقد جئتك دون سواك .

– هل لى أن أسأل لماذا جئتنى دون سواى ؟!

فرمقتنى ببرود وأجابت :

– سأجيبك عن ذلك فى غير حرج ، لقد جئتك دون سواك لانك تقيم فى مكان مهجور ، ولانك لا تعرفنى ولم ترلى، ولانك طبيب بارع ... وأخيرا ، لان ...

وترددت للمرة الاولى منذ وقع عليها بصرى ، ثم أردفت :

– وأخيرا ... لاننى أرجح انك لن تمكث طويلا فى (جاوه) .. متى أتيح لك مبلغ جسيم تستطيع أن تعود به الى وطنك .

فأحســت من هذه المســاومة العجيبــة برعدة تمشى فى جسدى ..

اذن فلا تعويع ، ولا رجاء ، ولا توسل ..

اذن فقد وزنتنى .. وعرفت قياسى .. وقدرت الثمن .. ثم جاءتنى واثقة من انها تستطيع أن تطوينى لارادتها، وتصنع بى ما تريد .

الحق انى بهت . وجمدت فى مكانى .. وامتلأت نفسى مرارة وضغنا .. وان أكن قد نجحت فى الاحتفاظ بمظــاهر الهدوء والوقار ..

سألتها بلهجة لا تخلو من سخرية :

وهذا المبلغ الجسيم الذى عنه تتحدثين ، هل تعرضينه على ثمنا لـ ...

– ثمنا لخدماتك الان ، على أن يعقبها رحيلك فورا من الهند الهولندية ...

– لا شك أنك تعلمين ان الرحيل على هذه الصورة يفقدنى حقى فى المكافأة والمعاش ..

– الأجر الذى اعرضه عليك يعوضك عن ذلك وأكثر .

– هذا أسلوب صريح تحمدين عليه ، ولكنى أرجو مزيدا من الايضاح ، كم كان الأجر الذى فكرت فيه ؟!

– مائة الف مارك ، تحويلا على بنك امستردام (هولندا) ..

فارتجفت غضبا ودهشة ...

لقد حسبت لكل شىء حسابه ، وقدرت ثمنه، وعرضت هذا الأجر الجسيم على شرط أن أمزق العقــد المبرم بينى وبين الحكومة الهولندية ..

انها ابتاعتني قبـــل أن تراني ، دون أن تحسب لارادتي حسابا ، كما لو كنت آلة صماء ، لا شعور لها ولا ارادة .

واستبد بي الغضب ، لهذا السلوك المعيب الذي اذا دل على شيء ، فانما يدل على منتهى الاستخفاف وغاية الاحتقار .. ووددت لو اصفعها ، ولكني ماكدت ألتي واقفا ، وأرى فمها البارد الرقيق الذي ينطبق على كبرياء وينطوي على خيلاء . ذلك الفم لا يلتمس معروفا ، ولا يستجدى معونة ، وأرى عينيها العميقتين الصافيتين اللتين تطفو فيهما الجرأة والصلف وترسب في قرارتهما الحساسية وحرارة الانوثة . ما كنت أرى فمها وعينيها حتى الفثأ غضبي واستحال الى شيء عجيب . استحال الى نار تضطرم في شراييني ، والى رغبة بهيمية في أن احتويها بين ساعدي ، لألثم هذا الفم وأقبل هاتين العينين ولعل شيئا في قسمات وجهي قد فضح ما يعتلج في نفسي . لانها رفعت حاجبيها كما يفعل الانسان استهجانا لسائل يلح في الاستجداء .

وفي هذه اللحظة القصيرة .. خيل الى أن كلا منا يكره الآخر كراهية لا حد لها .. وان كلينا يشعر بهذه الكراهية المتبادلة .. فهي تكرهني ، لانها مضطرة الى الاستعانة بي وأنا أكرهها لانها تطلب معونتي لاتستجديها .

في هذه اللحظة القصيرة التي ســـادها الصمت .. كان حديثنا صريحا غاية الصراحة لاول مرة منذ التقينا .

وسرى في ذهني خاطر مخيف . كما يسرى السم في الفم .. قلت لها ...

ولكني أتعجل حوادث القصة .. وسوف تنسى فهي .. وقد يكون من الخير أن أوضح لك أولا . كيف طرا لي هذا الخاطر الجنوني .. ومن أين أتى .

وصمت محدثي .. واحتسى مزيدا من الويسكي . ولما استأنف حديثه ، كان صوته أقوى ونبراته أوضح ، قال :

ـ لست أحاول أن التمس لنفسي عذرا .. ولكني لا أريدك على أن تنسى فيطي ، فما أحسب أنني كنت يوما من يسمونه رجلا (طيبا) .. ولكني كنت دائما على استعداد لبذل معونتي للغير ما استطعت الى المعونة سبيلا . وقد كانت كل لذتي في ذلك المكان القفر اللعين الذي عشت فيه أن أستعين بما اجتمع لي من علم ومعرفة وتجارب في تهيئة آفاق جديدة من الامل في الصحة والعافية للمرضى الاشقياء . وتلك كما تعلم لذة روحية .. تشعر الانسان بقدرته . وترتفع به ولو في نظر نفسه على الافق الى مصاف الآلهة .. وقد كنت أحس بمتعة لاتعدلها متعة حين يأتيني أحد الوطنيين وقد تورمت قدمه من لدغة ثعبان أو حشرة سامة .. وهو يصرخ ألما وفزعا من أن يكون السبيل الأوحد لانقاذ حياته هو بتر ساقه .. فانقذ حياته وساقه على السواء .

وكنت استعذب مشقة اجتياز عشرات الاميال بين الغابات والاحراج لارفه عن امرأة عجوز تصطلى على فراش الحمى . وفي مستشفى لينزج كنت لا أجد عذرا في نجدة النساء وانقاذهن من مثل الورطة التي وقعت فيها هذه الزائرة .. ولكن كان الحافز والمبرر في تلك الحالات هو شعوري بأن أولئك النساء انما التمسن معونتي لأنهن في أمس الحاجة اليها انقاذا لحياتهن أو انقاذا لشرفهن .

كان هذا الاحساس بحاجة الغير هو الحافز لي على المساعدة وبذل المعونة ..

ولكن هذه الزائرة كيف السبيل الى افهامك ؟! ..

هذه الزائرة ضايقتني وأزعجتني منذ زعمت انها انما جاءت

عرضا .. ثم أعاجني وأثارت غضبي بكبريائها وصلفها .. واستطاعها قلة الاكتراث بأمر هو في الواقع موت أو حياة .

أضف الى ذلك أن المرأة لاتحبل . ولايكــون الجنين من احشائها من لعب (الجولف) أو مباريات (التنس) أو غير ذلك من العبث البرىء .. وقد كان من المتعذر على أن انظر الى هذه المرأة الباردة المتعجرفة الشامخة بأنفها التي تعتبرني مجرد آلة لاقيمة لها بعد ذلك أكثر من قيمة التراب الذى تدوسه بقدميها .. أقول : كان من المتعذر على ان انظر الى هذه المرأة .. دون أن أتخيلها قبل شهرين أو ثلاثة ، وقد خرجت من أصدافها البراقة المستحجبة ونزلت عن كبريائها وصلفها وربما كذلك عن عرضها وشرفها .. واستحالت الى شيء لين طيع بين ذراعي أب هذا الجنين الذى لم يولد والذى لاتريده ان يولد ..

ومن هذا الخيال برز الخاطر الاثيم الذى احتل ذهني وملك على مشاعرى .

لقد جاءتني هذه المرأة وهي أشد الناس احتقــارا لي .. وليس من سبيل الى اذلالها وتحطيم كبريائها ووضع أنفها في الوحل غير ان أحتويها بين ساعدي بجرأة وحرارة كما احتواها ذلك الاب المجهول .. لذلك الجنين المجهول . واني أريدك هنا أن تكون على يقين من أنني لم أحاول قط طيلة حياتي أن أستغل سلطتي كطبيب .. وانني اذا كنت قد حاولت ذلك الآن فليس لارضاء حاجة جنسية أو اشباع شهوة بهيمية .. أقسم لك أنني لم أفعل ذلك لذلك . وانما لمجرد الرغبة في هدم كبريائها ، ولكي أذلها على أن الرجل ما يزال هو العنصر المسيطر .. الذى يجب أن لاتعلو ارادة المرأة على ارادته .

واحسب انني قلت لك قبل الآن . ان المــرأة ذات الارادة الصلبة والشخصية القوية . المرأة التي تختفي أوثنها المصطرعة

وراء ستار من البرودة والكبرياء .. هذه المرأة تستطيع أن تصنع بي ما تشاء .. فاذا أضفت الى ذلك انني قضيت سبعة أعوام في عزلة تامة عن النساء الاوروبيات .. وانني لم ألق قط من الفتيات الوطنيات اللاتي عرفتهن طيلة هذه المدة ذلك الصد الذى يضرم دم الرجل . لأنهن يعتبرن رضاء الرجل الأبيض منة خليقة أن تقابل منهن بالشكر والاستسلام ... أقول اذا أضفت ذلك ووضعته موضع الاعتبار .. استطعت أن تفهم كيف اثارتني واضرمتني هذه المرأة القوية المتعصبة التي ما زالت تحمل في أحشائها ثمرة غرام مستتر .. استطعت أن تدرك أى شيطان تقمص جسدي حين رأيتها تقتحم تيهها بجرأة في عريني .. أنا الوحش الجائع الذى انقطعت صلته الانسانية بالعالم المتمدين كل هذه السنوات .

انما اقول لك ذلك . لكي تفهم ما سيلي :

هذه اذن . كانت الخواطر التي مرت بذهني حين قلت لها في برود :

ـ مائة الف مارك ! كلا .. لن اتقدم لمعونتك لقاء هذا المبلغ ..

فنظرت الى واعتقمت قليلا .. وأكبر الظن انها احســت بغريزتها ان العقبة ليست بسبب المال بيد أنها لم تزد على أن سألت :

ـ أى أجر تطلب اذن ؟! ..

فأجبت

ـ سأتحدث في صراحة . انني لست تاجرا ولست من طراز ذلك الصيدلي المعدم الذى قرأت عنه في (روميو وجولييت) انك لن تنالي مني ماتبتغين اذا اعتبرتني رجل عمل فحسب والذى كان يبيع السم بما هو أسم منه . وأعني الذهب ..

ـ ألا تريد اذن أن تبذل لي معونتك ؟ .

ـ إنني لا أبذلها لقاء مال .

وهنا ساد سكون شامل بحيث استطعت أن أسمع تجاوب أنفاسها ..

قالت :

ـ ماذا تريد اذن ؟ .

فأجبت بحدة :

ـ يجب أولا أن تتحدثي الي لا كتاجر . وانما كرجل .. واذا كنت بحاجة الى معونتي فلا ينبغي أن تلوحي لي بالذهب هذا السم القاتل للنفس والكرامة .. بل ينبغي أن تتوسلي الي ، أنا الانسان ، أن أمد يد المعونة اليك ، أنت الانسانة .

انني لست طبيبا فحسب و موعد العيادة ، لايشمل كل وقتي . وفيما عدا ساعات العمل توجد ساعات أخرى أحد فيها بحظي من الراحة أو اللهو . ومن المحتمل أن تكوني قد جئتني في احدى هذه الساعات الأخرى .

وساد الصمت مرة أخرى ، ثم لم تلبث ان قلبت شفتها وقالت :

ـ اذن فأنت على استعداد لمعونتي اذا توسلت اليك ؟! ..

ـ أنا لم أقل هذا .. ويخيل الي أنك مازلت تحاولين المساومة .. يجب أن تتوسلي أولا . وستعرفين جوابي بعد ذلك .. وقد يكون هذا الجواب رفضا وقد يكون قبولا .

فرفعت رأسها بكبرياء كما يفعل الجواد الاصيل . وهتفت :

ـ لن أتوسل اليك .. انني أوثر الموت على استجداء معونتك.

فغلى الدم في عروقي . وصحت في غضب :

ـ ما دمت لا تريدين أن تتوسلي .. فسأذكر الثمن الذي أريده . وأحسب أنه لاضرورة لمزيد من الايضاح .. فما أظنك الا قد أدركت أي ثمن أريد .. فاذا دفعته أخرجتك

من ورطتك .

فحملقت في وجهي لحظة .. ثم اذا بملامحها تنبسط فجأة واذا هي تنفجر ضاحكة ، وأي ضحكة ؟! ضحكة تعبر عن كل ما في قواميس اللغة من معاني الاحتقار والازدراء ، ضحكة ذهبت بصوابي .. وأحالتني الى تراب أو ما هو أقل من التراب ...

كان لضحكها دوي الانفجار وفعل الصاعقة .. وكان أثرها في نفسي أن تمنيت لو اقبل قدميها .. وأضع جبيني تحت نعليها ..

وقبل أن يتلاشى في الفضاء صدى سخريتها الساحقة ، دارت الزائرة على عقبيها ، وقصدت الى الباب ..

وتبعتها دون أن أعي ، لكي أستذلها ، واسألها الصفح والمغفرة . ولكنها نظرت الى قبل أن تنصرف . وقالت بلهجة الآمر :

ـ حذار أن تتعقبني . أو تحاول معرفة من أكون ، اذا فعلت فستندم أشد الندم ..

وتوارت بأسرع من لمح البصر .

- ٦ -

وصمت محدثي عندما بلغ من قصته هذا الحد .. وساد السكون وقتا طويلا .. ثم خرج صوته من جوف الظلام مرة أخرى .

قال :

ـ توارت من الباب اذن وبقيت في مكاني جامدا مصعوقا . وكان لتحذيرها قوة مغنطيسية ، تسمر قدمي في الأرض .

وسمعت وقع قدميها على السلم .. ثم سمعت صوت غلق الباب الخارجي ..

سمعت كل ذلك .. ووددت أن أتبعها . لا أدري لماذا . ألأدعوها ، أو لأصفعها ، أو لأخنقها ، مهما يكن الأمر فقد أردت أن أتبعها .. ولم أستطع .

ولعل أن يكون السبب هو تلك الضحكة الساخرة .. التي سلبتني اللب ، والإرادة ، وأحالتني إلى شيء كالخرقة البالية ، وهكذا انقضت بضع دقائق ، قد تكون خمساً ، وقد تكون عشراً ، وقد تكون أكثر من ذلك أو أقل ، قبل أن أعود إلى وعيي ، وأسيطر على نفسي .

بيد أنني لم أكد أخطو الخطوة الأولى .. حتى تبددت تلك المغناطيسية الفولاذية التي شلت أعصابي وسمرتني بالأرض فاندفعت أهبط السلم ووصلت إلى الباب بسرعة البرق ..

لم يكن هناك غير طريق واحد يتعين عليها أن تسلكه ، وذلك هو الطريق إلى المستعمرة القريبة ، ومنه إلى العاصمة فأسرعت إلى الحظيرة التي أضع فيها دراجتي ، وما أن بلغتها حتى تذكرت أن مفتاحها ليس معي ..

ولم أضع الوقت في العودة للبحث عن المفتاح .. بل ركلت باب الحظيرة بقدمي فتحطم ، واختطفت الدراجة ، وما هي إلا لحظة حتى كنت أطوي بها الطريق ..

كان لا بد لي أن ألحق بها قبل أن تصل إلى سيارتها ، كان لابد لي أن أتحدث إليها ..

وأخذ الطريق القصير ينبسط أمامي ، واذكرت عن طول المسافة التي اجتزتها قبل أن أبصر بها ، طول الوقت الذي قضيته جامداً في مكاني بعد أن غادرتني ..

نعم ، أبصرت بها أخيراً ، حيث ينحني الطريق حول الغابة

قبيل مدخل المستعمرة ، وكانت تسير على قدميها مسرعة وخادمها الصبي يعدو وراءها عدواً لكي يلحق بها .

ولا بد أنها أحست بأنني أطاردها ، في ذات اللحظة التي رأيتها فيها ، لأنها توقفت عنيفة لتتحدث إلى خادمها ، ثم استأنفت المسير وحدها ، وتركت الخادم واقفاً في عرض الطريق ..

وسألت نفسي ، ترى لماذا سارت بمفردها ؟؟ هل تريد أن تتحدث إلى حيث لا يسمعنا أحد !!

وضاعفت سرعتي ، وما كدت أصل إلى حيث الغلام حتى وثب أمامي فجأة ، فانحرفت لأتجنبه ، واندفعت بالدراجة إلى حافة الترعة المحاذية للطريق ، وسقطت .

وانهضت من سقطتي وأنا ألعن الغلام ، ورفعت قبضتي لأهوي بها على رأسه ، ولكنه تجنب اللكمة فلم تصبه .

ولم ألق إليه بالاً ، وتناولت الدراجة ، وهممت بالوثوب عليها ، لكن الغلام أمسك بمقعدها ، وقال بالإنجليزية السقيمة :

ـ قف هنا أيها السيد .

وأكبر الظن أنك لم تقم في هذه المستعمرات الاستوائية ، لتدرك ما في مثل هذا السلوك من قحة لا تغتفر ، فليس من المألوف أن يعترضك أحد الوطنيين ، فضلاً عن أحد الوطنيين الخدم دون أن يلقى جزاءه الحق ، وقد كان جوابي الطبيعي على كلماته أن أهويت بقبضتي على جبينه ، فترنح ، ولكنه ظل ممسكاً بالدراجة ..

كان الخوف يملأ عينيه الضيقتين ، ولكنه كان قوي العزيمة فلم يترك الدراجة وهتف مرة أخرى :

ـ قف هنا أيها السيد ..

ولحسن الحظ انني لم اكن احمل مسدسي ، ولولا ذلك لقتلته في التو واللحظة .
صحت :

ـ دعني أمر أيها الكلب ..

فحملق في وجهي ، وقد استولى عليه الذعر والهلع ، ولكنه لم يترك الدراجة .

واشتد بي الغضب .. واحسست بان إبطائي سيساعدها على الفرار .. فضربت الغلام على فكه ضربة طرحته أرضا ، ووثبت على الدراجة ، ولكنني لم أكد أحاول السير بها .. حتى لاحظت أن عجلتها الأمامية قد التنت من أثر السقطة ، وانه يستحيل على أن استخدمها في الحال ، فألقيت بها في عرض الطريق بجانب الغلام ، وعدوت في الطريق الى المستعمرة .

نعم .. عدوت ، وهنا أقول لك مرة أخرى ، انه من المستحيل عليك انت الذى لم تعش في تلك البلاد ، ولم تألف تقاليد الحياة فيها ، أن تدرك ما ينطوي عليه مثل هذا السلوك من جانبي ..

فالرجل الأبيض اذا نسي مركزه ، وأغضى عن هيبته ، فأطلق ساقيه للريح أمام الوطنيين ، لا يكون الا قد أهدر كرامته ، وأضاع مركزه ، وجعل من نفسه أضحوكة للجميع .

ولكني في ذلك الوقت ، لم اكن الرجل الذى يستطيع ان يفكر في هيبته أو كرامته ، فانطلقت أعدو كالمجنون وسط أكواخ الوطنيين ، والناس من حولي ينظرون في دهشة وعجب الى طبيب المستعمرة ، ذلك الرجل الخطير الوقور وهو يجرى أمامهم كأى غلام حافي القدمين

ولما وصلت الى المستعمرة ، كنت منقطع الانفاس متصبب الجسد عرقا ..
سألت وأنا ألهث :

ـ أين السيارة ؟ .

فأجابني بعض الناس :

ـ انها انطلقت منذ لحظة .

ولما أرسلت بصري مع الطريق ، لم أر من السيارة غير سحب الغبار الذى اثارته خلفها . وهكذا تمكنت من الافلات ، ونجحت خطتها في تعويقي كل النجاح .

ولكن فرارها لم يجدها فتيلا ، فالأوربيون وهم الطبقة الحاكمة في هذه المستعمرات فئة قليلة بارزة تكاد أسماؤهم وأعمالهم أن تكون في متناول الجميع ، وقد تحدث سائق السيارة طويلا مع أهل المستعمرة ، بينما كانت سيدته في زيارتي .. وهكذا ، وفي دقائق معدودة أتيح لي أن أعرف عن غريمتي كل شيء ، فعرفت اسمها ، وعرفت مقرها في العاصمة على بعد مائة وخمسين ميلا ، عرفت أنها انجليزية الأصل ، وهو ما ادركته لأول وهلة ، وان زوجها تاجر هولندي عريض الثراء ، سافر الى امريكا منذ خمسة شهور لبعض شئونه ، وسيعود بعد بضعة أيام ليرافق زوجته في رحلة أخرى الى انجلترا .

لقد غاب عنها زوجها منذ خمسة شهور ، بينما كان من الواضح الجلي أن عمر الجنين لا يتجاوز ثلاثة شهور .

- ٦ -

الى هنا كان من أيسر الأمور أن أوضح لك كل شيء .

لأن حوافزي وأحداق كانت واضحة أمامي ، ولأنني كطبيب مجرب ، لم أجد حتى هذه المرحلة من قصتي أي عسر في تشخيص حالتي ، ولكني فقدت سلطاني على نفسي بعد ذلك ، وأصبحت أشبه بمحموم يهذي .

كنت أعلم أن هذا التصرف أو ذاك ضرب من الجنون ، ومع ذلك أقدمت عليه بغير تردد ، ودون أن أقيم وزنا لأي اعتبار هل سمعت في حياتك عن (خبل المناطق الاستوائية) ؟!

فأجبته : أظن أنني سمعت شيئا عنه ، إنه نوع من الهذيان العنيف ، يصيب أهل (الملايو) في ظروف خاصة .

— إنه أكثر من الهذيان ، إنه جنون يصيب الرجل فيصبح كالكلب الكلب ، إنه اختلال مخيف وغريب ، يصيب الرجل فجأة في قواه العقلية ، فيجعل منه وحشا قاتلا من أبشع طراز ، لقد رأيت بعض حالاته وتوفرت على دراستها باهتمام وعناية ، ولكني لم أوفق إلى معرفة طبيعته ، على أنني أرجح أن يكون سببه إلى حد ما هو ذلك الجو الخانق الرطب الذي يرهق الأعصاب وينهكها ، ولا يلبث أن يمزقها ، وإن يكن قد لوحظ بصفة عامة ، أن هذا الخبل إنما يصيب خاصة أولئك الذين يعانون نوعا من المتاعب كالغيرة ، وكالحب الذي لا رجاء فيه ، وخسارة المال في الميسر ، وغير ذلك مما يهز النفس هزا عنيفا ، فترى الرجل جالسا في هدوء كأن ليس به شيء ، كما كنت أجلس في غرفتي عندما جاءتني هذه المرأة ثم إذا به يثب من مكانه فجأة ، ويختطف خنجره ، وينطلق إلى الشارع في أي اتجاه ، فيضرب بخنجره كل إنسان يصادفه في طريقه ، ولا يزيده منظر الدماء إلا خبلا وجنونا ، وتعطشا إلى الدم ، فهو يرغي ويزبد ، ويصرخ صراخا مزعجا ومؤلما معا ، ويوزع الطعنات القاتلة ذات اليمين وذات

اليسار ، والناس من حوله فزعون يتحسرون عن طريقه في هلع ويصيحون : (مخبول .. مخبول) ، وما يزال المخبول يعمل القتل فيمن يصادفه حتى تصيبه رصاصة تصرعه ، لأن الجميع يعلمون أن لا شيء ينقذهم من خبله ، ولا شيء ينقذه من نفسه ، إلا الموت .

ولقد رأيت بعض الذين أصابهم هذا الخبل ، ولذلك أستطيع أن أصف ما أصابني في تلك الأيام كنت أعدو كالمجنون في أثر هذه المرأة الانجليزية دون أن ألتفت يمنة أو يسرة ، وقد ملكتني رغبة واحدة ، وركبني خاطر واحد ، هو أن أراها مرة أخرى ..

ولست أذكر على وجه التحقيق ماذا صنعت في الدقائق المحمومة التي سبقت انطلاقي في أثرها ، كل ما أذكره أنني لم أكد أعرف اسمها ، ومقر إقامتها حتى استعرت دراجة وعدت بها مسرعا إلى البيت ، حيث دسست بعض الثياب في إحدى الحقائب ، ووضعت بعض النقود في جيبي ، وانطلقت إلى أقرب محطة للسكة الحديد ، دون أن أخطر أحدا بعزمي على الرحيل ، ودون أن أدبر طبيبا يحل محلي ، ويؤدي عملي أثناء غيابي ، وهكذا لم تكد تنقضي ساعة واحدة على زيارة تلك المرأة حتى كنت قد خرجت عن طوقي ، وقطعت كل صلة لي بالماضي والحاضر ، وقذفت بنفسي في الفضاء كالمخبول .

ولكني في الحق لم أجن شيئا من هذه العجلة ، وذلك ما كان ينبغي لي أن أتبينه ، لو أنني استطعت التفكير ..

وقد وصلت إلى المحطة في المساء ، ولكن القطارات في المناطق الجبلية لا تسير في الليل خوفا من السيول ، فاضطررت أن أقضي ليلة مسهدة في كوخ موظف المحطة ، وفي الصباح تحرك القطار ، وقضى النهار كله في الطريق ، ولم أصل إلى

العاصمة الا في المساء .

وكنت واثقا من أن سيارتها لابد قد سبقت القطار . فلم تكد تنقضي بضع دقائق على وصولي الى العاصمة حتى كنت بباب بيتها ..

لك أن تعقب على هذا الذي فعلته . بأنه الجنون بعينه . واني أقرك على انه جنون . ولكن الذين رماهم الله بالخبل لا يفكرون ماذا هم صانعون ..

بعثت اليها ببطاقتي . وعاد الخادم ـ وهو غير الغلام الصيني الذي صرعته في عرض الطريق ـ ليقول ان سيدته متوعكة الصحة . ولا تستطيع أن تستقبل احدا .

ولم اجد بدا من الانصراف . فسرت أتعثر في الطريق . وقضيت ساعة أو بعض الساعة أطوف حول البيت وكل رجائي أن تلين صلابتها وتلين قناتها . فتبعث في طلبي ..

ولما أعياني الصبر .. وهدني .. ولجت الى فندق قريب . مصطحبا معي زجاجتين من الخمر .. وبعض العقاقير المخدرة .. وبالخمر والعقاقير استطعت ان انعم بغيبوبة رحيمة .. في هذا السباق العنيف بين الموت والحياة ..

- ٧ -

وفي هذه اللحظة . دق ناقوس الباخرة ثماني دقات ايذانا بالساعة الرابعة وكان لدقاته رنين فجائي أزعج محدثي فكف بغتة عن الكلام .

على انه لم يلبث ان جمع شتات افكاره ومضى في قصته فقال :

ـ يتعذر علي ان أصف الساعات التي مرت بي بعد ذلك .

ويحتمل أن أكون قد احسست بحبي . ومهما يكن الأمر فلقد كنت من الاضطراب والقلق فيما يشبه الخبل .

وكنت قد بلغت العاصمة في مساء الثلاثاء . وفي اليوم التالي . علمت ان زوجها سيصل يوم السبت . ومعنى ذلك انه لم يبق سوى ثلاثة أيام لانقاذها من ورطتها المخيفة .

كانت للساعات بل للدقائق قيمتها الحيوية البالغة الخطورة . ولكنها مع ذلك ترفض مقابلتي !

واحسست من الرغبة الملحة في أن اقنعها . او على الأقل في أن اعتذر لها عن سلوكي المعيب . مما زاد قلقي واضطرابي . وضاعف الفوضى التي اصابت اعصابي ..

كانت الثواني أثمن من الذهب . وكل شيء يتعلق بخيط أوهى من نسيج العنكبوت . ولكن كرامتها نأت بها عن الدنو مني بعد تلك الاهانة القاذعة . فهل تصورت أقسى من هذا ؟! شخص تتعقبه ليل نهار لتحذره باخلاص من قاتل يريد الفتك به . فيظن انك انت القاتل . ويفر منك الى ملاكه !! اكبر الظن انها لم تر في وقتئذ الا معتوها آذاها مرة بطلب وضيع . ثم اقبل الآن يطاردها . ليكرر الطلب بما جبل عليه من ضعة وسفالة . وذلك أهول ما في الامر فما اردت في الواقع الا ان أمد لها يد المعونة . كنت على استعداد لارتكاب أية جريمة في هذا السبيل . ولكنها لم تكن تدري ...

ولما ذهبت الى بيتها في اليوم التالي . لمحت الغلام الصيني واقفا بالباب . والظاهر انه عاد معي بنفس القطار . وانه وقف بالباب ليرقب ويستطلع . لأنه لم يكد يراني . حتى توارى عن بصري . ولعله ان يكون قد اسرع لينبىء سيدته بمقدمي ...

انني أكاد أجن الآن كلما فكرت في انها ربما احست آخر الأمر بأنني لا أبغي الا انقاذها ، وانني لو طلبت مقابلتها في ذلك اليوم لاستقبلتني ، ولكن حدث يومئذ انني ما ان رأيت الغلام حتى تذكرت عاري ، فنكصت على عقبي ، وانصرفت دون ان اطلب مقابلتها ، انصرفت وانا نهب عذاب لايطاق ، في وقت ربما كانت تنتظرني فيه .. وهي ليست اقل مني عذابا وقلقا ..

ولم أدر كيف أقضي الوقت في تلك المدينة التي اجهلها ، ثم خطر لي أن أزور الحاكم الذي اجريت له تلك الجراحة الناجحة ، عندما الكسر ساقه في حادث التصادم ، وكان الرجل في بيته ، فرحب بي ، وسره كثيرا أن يراني .

هل قلت لك انني أجيد الهولندية واتكلمها بطلاقة كأني هولندي ؟! انني قضيت في مدارس هولندا بضعة أعوام ، وذلك هو السبب في انني آثرت الخدمة في المستعمرات الهولندية دون غيرها حين تعين على ان ابرح ليبزج .

ولا بد ان يكون الرجل قد رأى في ملامحي وحركاتي ماأرابه في أمري ، فانه رغم لطفه وأدبه لم يكف عن النظر الي متسائلا كمن أدرك أن بي خبلا .

قلت له انني ضقت ذرعا بالحياة في تلك البراري الموحشة وانني جئت اطلب نقلي الى العاصمة .

فصعدني بعينيه كما يصعد الطبيب مريضه ، وقال :

ـ هل انهارت أعصابك اخيرا يادكتور ؟! حسنا ، انني اقدر ظروفك ، وسأدبر الأمر ، انما ينبغي أن تبقى حيث أنت أسبوعين أو ثلاثة ريثما نجد من يحل محلك .

فهتفت :

ـ أسبوعين او ثلاثة ! لا أستطيع أن أبقى يوما واحدا .

فرمقني بتلك النظرة المتسائلة مرة أخرى وقال :

ـ أخشى أن لا يكون ثمة مفر من البقاء عند المدة يا دكتور انا لانستطيع أن نترك مكانك شاغرا ، ومع ذلك فانني أعدك بأن اهتم بالأمر من الآن .

فنهضت واقفا وعفشت شفتي ، فقد أدركت للمرة الأولى كيف بعت نفسي كلية ، وأسلمتها للعبودية بثمن بخس .

وهممت بأن أتحداه وأتحدى أوامره ونظمه ، ولكنه كان رجلا ذكيا بعيد النظر ، ثم انه كان مدينا لي بساقه ، وقد توقع ان أجيبه في خشونة وغلظة ، فقطع على السبيل وسبقني بقوله :

ـ انك عشت هذه السنين عيشة الناسك ، وذلك وحده حقيق بأن يحطم أعصاب أي انسان ، ولطالما عجبت ، لماذا لا تطلب اجازة ، ولماذا لاتأتي الى العاصمة ؟!

ان البيئة الحسنة ، والاجتماعات الحافلة ، تفيدك كثيرا ، وترد عليك السكينة والمرح ، وتجدد نشاطك وحيويتك ورغبتك في الحياة والعمل ، بهذه المناسبة اقول لك اننا سنقيم هنا حفلة ساهرة هذا المساء ، فهل لك في الاشتراك معنا ؟! ستساهم الجالية كلها في الحفلة ، وبين اعضاء الجالية كثيرون طالما سألوا عنك ، وتمنوا ان يتعرفوا بك .

أرهفت السمع جيدا :

كثيرون طالما سألوا عني ، وتمنوا لو تتاح لهم فرصة للتعرف بي ! ترى هل كانت هي بين أولئك الكثيرين ؟!

وأنعشني هذا الخاطر ، وفعل في نفسي فعل الخمر ، فتكلمت في أدب ولين بعد اذ كنت أضمر الخشونة والغلظة ، وشكرت للحاكم حفاوته ، ووعدته أن ألبي دعوته .

وقد لبيتها ، بل كنت في الواقع اول من لبـاها ، بدافع الرغبة في أن أراها بين المدعوين . فذهبت الى الحفلة مبكرا جدا ، ولم اجد هناك غير الخدم . فقضيت ربع ساعة وحيدا في بهو فسيح هادىء ، لا يسمع فيه غير همسات الخدم . ووقع خطواتهم الخافتة ، وهم يتسللون هنا وهناك

وأخيرا .. بدأ المدعوون يتوافدون ، وكلهم أوروبيـون ، واكثرهم موظفون تصحبهم زوجاتهم ثم أقبل الحاكم فرحب بي ترحيبا ، ودار بيني وبيـنه حديث طويل ، أعتقـد أنني استطعت خلاله أن احتفظ بوقاري واتزان عقلي ، الى أن عاودني الاضطراب فجأة ، وتلعثم لساني .

ذلك لأنني رأيتها مقبلة .

ومن حسن الحظ أن الحاكم ختم حديثه معي ، وتحول الى آخر من المدعوين . ولولا ذلك لوليته ظهري وانصرفت عنه بكل بســاطة .

كانت ترتدي ثوبا أنيقا من الحرير الأصفر ، ينحسر فوق صدرها ، ويبرز فتنة كتفيها العاجيتين وقد اندمجت فورا في جماعة من المدعوين ، وراحت تتحدث اليهم في خفة ومرح

ولكنني أنا الذي أعرف سرها ، كنت أرى أو خيل لي أنني أرى ، ما وراء مرحها ومجونها وبسماتها المتألقة ، من قلق وهم دلوت من المكان الذي تقف فيه ، ولكنها لم تراني ، وأصرت على أن لا تراني ، وظلت تتحدث في مرح وتبتسم .

قلت لنفسي : اليوم يوم الاربعاء ، وسيعود زوجهـا يوم السبت ، فكيف تستطيع أن تبتسم ، وكيف تسـتطيع أن تحرك مروحتها في هدوء وسكينة ، بدلا من أن تنشب أظافرها فيها ، وتمزقها شر ممزق ؟

لقد كنت – أنا الغريب عنها – أرتجف هلعا مما يدخره لها

القدر . وكنت خلال اليومين الاخيرين ، أتألم لألمها ، وأشفق لشعورها ، فهل يمكن لهذه الابتسامة التي تضيء وجهها القلق ان تكون قناعا ام يحجب العاصفة التي تزمجر في أعماقها ؟

وارتفعت أنغام الموسيقى في القرفة المجاورة ايذانا بابتداء الرقص ، وتقدم منها ضابط في مقتبل العمر وسألها أن تراقصه ، فاعتذرت لمن حولها وتأبطت ساعد الضـابط ، وتهادت معه الى المراقص .

وكان لا بد لها أن تمر بي ، وأن تراني . وقد مرت بي وبهتت ..

وقبل أن أقرر أيهما أدنى الى الكياسة : ان أظهر معرفتي بها أو أن أتجاهلها ، اذا بها تحني رأسـها في ظرف وأدب ، وتحييني بقولها : طاب مساؤك يا دكتور .

ثم تمضي في سبيلها .

ولم يكن في مقدور احد أن يدرك ما وراء هذه الايماءة ، أنا نفسي ذهلت ، وبهت ولم أدر ، لماذا أظهرت علنا أنها تعرفني .. فهل ارادت أن تقابلني في منتصف الطريق ؟ هل أرادت أن تشعرني بأنها غفرت ، وصفحت أم تراها الخـفت على مرة . فلم يكن بوسعها الا أن تحييني ؟

لست أعلم على وجه التحقيق ، أي الافتراضين أقــرب الى الصواب ، كل ما أعلمه أن هذه الايماءة هزتني هزا ، وأثارتني من الاعماق .. وانها عندما ابتعدت .. كنت اتبعهـا بنفسي وقلبي ..

وراقبتها وهي ترقص . والابتسام يداعب شفتيها . وايقنت أنها لا بد تفكر طول الوقت .. لا في الرقص ، ولا في الفتى الذي يخاصرها ، وانما تفكر في السر المخيف الذي لا يعرفه أحد سوانا ، وقد زاد هذا التفكير – لو أن هناك مجالا للزيادة –

ما أشعر به من القلق والحيرة والهم .

ولا أدري هل لاحظ أحد أنني أتبعها البصر ولا أحول عيني عنها ، ولكنني واثق من أن احساسي بمراقبتها ، لم يكن يقل بحال عن احساسها بافكاري ، والاغضاء عني

والحق .. انه لم يكن في مقصودي أن أنظر الى أحد سواها . كنت ألتهب شوقا لأن أراها ترفع قناعها الباسم الواثق ولو لحظة واحدة

ولا بد أن نظراتي اليها ضايقتها وأزعجتها . لانها لم تلبث حين غادرت المرقص ومرت بي متأبطة ساعد زميلها أن رمقتني بنظرة ديكتاتورية غاضبة ، كأنما تهيب بي .. بل وتأمرني أن أظهر مزيدا من الرزانة ، والحكمة والسيطرة على عواطفي .

قالت لي بعينيها : « لا تلفت الانظار الي .. نحن في مكان عام » .

ولم تطلب مني الا أن أحسن التصرف . فلا أقدم على عمل طائش ، ولا أحدث فضيحة ، ولو قد أطعتها وانصرفت فورا ، ثم ذهبت اليها في اليوم التالي .. اذن لكان ممكنا أن تستقبلني وينتهي الأمر بيننا الى تفاهم ..

ولكني - كما قلت - كنت مصابا بخبل أو ما يشبه الخبل وقد زين لي خبلي انني أستطيع التحدث اليها فورا اذا الححت .. وأسرفت في الالحاح . فاقتربت من الجماعة التي كانت تدور بها ، وتنصت الى حديثها . ووقفت أصغي اليها ، ولا أتمالك من الارتجاف كالكلب المهين كلما التقت عيناها الباردتان بعيني .

كان من الواضح أنني انسان غير مرغوب فيه وسط هذه الجماعة ، فان أحدا لم يتحدث الي . وبدا لي انها كذلك متبرمة بي ، ساخطة على فضولي .

ولا أعلم كم من الزمن كنت أستطيع أن أظل واقفا كذلك ، مشدوها ، ثملا بموسيقى صوتها ، ولكن الموقف كان بالنسبة اليها دقيقا شاذا مرهقا لاعصابها ، فلم تلبث أن ختمت الحديث فجأة .. وقالت في ظرف وبساطة :

- أظن انني متعبة قليلا ، ويجب أن أبكر في النوم . لمعذرة .. وأرجو لكم سهرة ممتعة .

وحيت الجميع بايماءة ساحرة شملتني ضمنا .. وابتعدت وطلقت أرقب كتفيها الرشيقتين . وظهرها العاجي الناعم الجميل ، ولم أفطن - من فرط الذهول - الى أن آخر عهدي بها هذه الليلة . والى أنني لن أتبادل معها كلمة واحدة في هذه الفرصة الاخيرة .. التي طالما ترقبتها .. ورجوت أن تكون بالنسبة الي واليها فرصة الخلاص ..

ولما فطنت الى ذلك أخيرا ..

ولكن يجب قبل كل شيء أن أصور لك الموقف تصويرا كاملا ، واضحا ، لكي تدرك . أي معقل كنت في تلك الليلة .

كان البهو الكبير مقفرا من المدعوين أو يكاد يكون ، فقد انخرط كثيرون في حلبة الرقص وانتحى الآخرون .. وهم الاكبر سنا .. ناحية يلعبون الورق ، فلم يبق في البهو الا جماعات قليلة مبعثرة هنا وهناك ، تتجمت فيما يحلو لها ، فاجتازت صاحبتي هذا البهو الفسيح الرحيب بوقار وثبات ملأني اعجابا واجلالا ، وهي تحيي من تمر بهم ، بابتسامة هناء ، وابتسامة هناك ، الى أن بلغت نهاية البهو .. وهمت بالانصراف ، وعندئذ فقط ادركت انها ستفر مني ، فانطلقت أعدو في اثرها .. نعم ، انطلقت أعدو ، وحذائي يقرقع على الارض المشبهة اللامعة ، وكان من الطبيعي أن تتحول الى جميع الانظار ، وأن يغلبني الخجل والخزي ، ولكني مع ذلك لم أتوقف . بل لم أستطع التوقف حتى لحقت بها عند الباب ،

فتحولت الي وعينـــاها تتألقان ، وملامحها ترتجف غضـــبا وازدراء .

بيد أنها أخذت نفسها بالحزم وقوة الارادة فسيطرت على غضبها بسرعة البرق ، وانفجرت فجأة ضاحكة ، وقالت بسرعة خاطر أذهلتني ، وبصوت مرتفع سمعه الجميع :

ـ آه .. أهذا أنت يا دكتور .. يخيل الي أنك تذكرت أخيرا ذلك الدواء الذي وعـــدت به خادمي ، لكم الله يا رجال العلم ، ما أضعف ذاكرتكم ، وما أسرع ما تنسون !

وكان على مقـــربة منها رجلان من المدعوين ، فابتسما استحسانا ...

أما أنا ففهمت في الحال ، وأعجبت باللباقة التي سترت بها حماقتي ، وأدركت ما ترمي اليه .. فأخرجت من جيبي دفترا ، وقطعت منه ورقة قدمتها اليهـــا وعبارات الاعتذار تتعثر على شفتي ، فتناولت الورقة وهي تبتسم وقالت :

ـ طاب مساؤك ..

وانصرفت

وهكذا أنقذت الموقف ، ولكني أحسســت .. فيما يتصل بموقفي منها ، أن لا أمل لي ولا رجاء ، فهي تحتقـــرني ، وتزدريني ، وتكرهني كالموت ، وانني مهما صنعت ، فستطردني عن بابها المرة بعد الأخرى كما تطرد كلبا تخشى أن يلوثها ..

وعدت أدراجي الى البهو ، والقوم من حولي يحملقون في وجهي ، كما لو كان في ملامحي شيء غريب يغريهم بالنظر الى

وقصدت الى المقصف ، حيث احتسيت أربع كؤوس من الخمر على التعاقب ..

كانت أعصابي محطمة مهلهلة ، ولا شيء خليق أن يسكنني ،

ويمنعني من الانهيار التـــام غير الكثير من الشراب المنعش المخدر ، فلما أتيت على ما في الكأس ، تسللت الى أحد الابواب الجانبية ، وفررت منه كما يفر اللص ..

لم يكن ذهب الارض جميعا ليغريني بالعودة الى البهـــو ، والاستهداف مرة أخرى للنظرات الساخرة ، والبسمات المتهكمة

ولست أذكر ماذا صنعت بعد ذلك ، فربما أكون قد اختلفت الى كثير من الحانات في طلب مزيد من الشراب ، لكي أنسى ، ولكن شيئا مما تناولت لم ينفع في قتل ذاكرتي وتخـــدير حواسي ، فما زالت ترن في أذني ضحكاتها الســـاخرة لاول يوم رمقتني باحتقارها ، ومضت ، وما زلت اسمع ضحكتهـــا المفتعلة التي سترت موقفي في البهو وأنقذتني من الخـــزي ، وتمنيت وأنا أذرع صفحة النهر على غير هدى ، لو أن مسدسي معي ، لأطلق منه رصاصة على رأسي ، واسقط في الماء ، وأكتب بذلك كلمة الخاتمة في سفر حياتي التافهة الحقيرة ..

وسيطرت علي فكرة الانتحار ، فعدت الى الفندق وأنا مصمم على انفاذها ، واذا كنت لم أقتل نفسي في الهزيع الاخير من الليل ، فليس عن خوف وجبن ، وانما عن شعور خفي ، بأن أمامي واجبا يتعين علي أداؤه ..

كنت أشعر بأنها ربما تحتاج الي ، بل كنت واثقا من أنها في أشد الحاجة الي ، فنحن في صباح الخميس ، وبعد يومين

يعود زوجها ، ومن المستحيل على امرأة لها هذا الكبرياء وهذه الخيلاء ، أن تعيش لتواجه العار الذي لا مفر منه اذا افتضح أمرهـــا .

ورحت أدور بالغرفة ساعات طويلة ، وأقلب في ذهني شتى الخواطر والتأملات ، وألعن العجلة والاخطاء التي أقامت بيني وبينها هذا الجدار الفولاذي ، وسلبتني نعمة التفـــاني في

خفتها ، والاخذ بيدها ، واخراجها من ورطتها . وذهبت أقلب وجوه الرأى ، وأتساءل كيف السبيل للاتصال بها ، وكيف أقنعها بأن لا غاية لى ولا مأرب ، الا أن أبذل لها معونتى خالصة بريئة . .

انها لا تريد أن ترانى ، وتصر على الا ترانى . وضحكتها الساخرة لن أنساها ، ونظراتها الساحقة التى تطالعنى اينما حولت بصرى ، وارتجاف شفتيها وجدا واحتقارا ، كل ذلك يزيل الشك فى شعورها نحوى ، لو كان يخامرنى فى طبيعة هذا الشعور اى شك أو ارتياب . .

وهكذا جعلت أذرع غرفتى الضيقة حتى بزغ الفجر ، ثم لم تلبث الشمس أن طلعت على الكون باشعتها الوهاجة ، وامتلأت الشوارع بالمارة والمركبات والدواب ، لان الحركة والنشاط فى المناطق الاستوائية يبدآن كما تعلم ، فى ساعة مبكرة من النهار . فجلست على مقعد ، وتناولت قلما وورقة ، وكتبت اليها كتابا حافلا اعترفت فيه بنذالتى وضعتى ، ورجوتها الصفح ، وتوسلت اليهـا أن تثق بى فى غير تحفظ ، وأن تأتمننى على نفسها فى غير خوف ، وأقسمت لها لأختفين بعد ذلك من المدينة بل من المستعمرة ، بل من الدنيا كلها اذا أرادت . كل ما أطمع فيه ، وأستجديه ، راكعا على ركبتى ، هو أن تغفر ، وتثق ، وتسمح لى بأن أساعدها فى هذا الظرف العصـــيب . .

وقد شغلت الرسالة عشرين صفحة ، ولا بد أنها كانت رسالة عجيبة شاذة ، من طراز الرسائل التى تكتب فى مستشفيات المجانين ، أو فى هذيان الحمى . ولما فرغت من الكتابة كان العرق يتصبب على جسدى ، وجدران الغرفة تدور من حول ، فتناولت جرعة ماء ، وحاولت أن أعيد قراءة ما كتبت ، ولكن الكلمات سبحت أمام عينى . .

وهممت بأن أطوى الرسالة وأبعث بها ، حين خطر لى أن أضيف اليها شيئا يوقظ عطفها ، ويثير شفقتها ، فاختطفت القلم ، وذيلت الصفحة الاخيرة بهذه الكلمات : « انى فى الفندق انتظر كلمة منك ، فاذا لم يدركنى صفحك قبل المساء فسأقتل نفسى »

وغلفت الرسالة وسلمتها الى أحد خدم الفندق ورجوته أن يذهب بها فى الحال ، ولم يبق لى ما افعله بعد ذلك الا أن انتظر الجواب .

- ٨ -

وكأنما أراد محدثي أن يفصل بين هذه المرحلة من حديثه وما يليها من مراحل ، فلزم الصمت بضع دقائق ، ثم عاد الى استئناف حديثه بمزيد من الحماسة والتأثر ، فقال :

ـ لقد أضاعت المسيحية معناها بالنسبة الى منذ زمن بعيد ، فلم يبق لأساطير الاولين عن الجنة والجحيم أثرها في نفسي ، ولكن لو صح أن هناك جحيما ، فانني لا أخشاه الا قليلا ، ذلك لانه لا يوجد جحيم أسوأ من تلك الساعات التي قضيتها في الفندق ..

انت تعرف فنادق هذه البلاد ، فتصور غرفة ضيقة جوفها من وهج الشمس وحرارة الجو كالاتون الملتهب ، وليس بها غير مقعد وفراش ومائدة ، ولا شيء غير ساعة ومسدس ، وقد جلس امام المائدة رجل يحملق في الساعة وفي المسدس ، رجل لا يأكل ولا يشرب ، بل ولا يدخن ، لكنما يجلس بغير حراك، يرقب الساعة ، ولا يحول بصره عن عقربها الكبير في دورته الدائبة .....

هكذا قضيت النهار انتظر ، وانتظر ، وانتظر ، وعلى الرغم من انني لم آت بحركة فقد كنت كالمخبول المندفع في طريق الفناء .....

ولكنى لن أمضى طويلا في وصف تلك الساعات ، وبحسبي أن أقول لك ، انني لا أكاد أفهم كيف يستطيع انسان أن يقضى هذه الساعات كما قضيتها دون أن يجن ..

وفي الدقيقة الثانية والعشرين بعد الساعة الثالثة ، سمعت طرقا بالباب ، واذا الطارق غلام من الوطنيين يحمل ورقة مطوية غير مغلقة ..

اختطفت الورقة منه اختطافا ، وتوارى الغلام قبل أن إبسطها بين يدى ..

وهنا ، يجب أن أقول لك انني لم استطع للوهلة الأولى قراءة الرسالة المقتضبة

هاهو ردها قد ورد أخيرا ، ولكن الكلمات تسبح أمام عيني، ولا أستطيع أن أفهم لها معنى ..

اضطررت أن أغمس رأسي في الماء البارد قبل أن استجمع حواسي ويصفو ذهني ، وأدرك معنى هذه الكلمات الانجليزية المكتوبة بقلم الرصاص :

« فات الوقت ، ومع ذلك يحسن أن تبقى في الفندق ، فربما ارسل في طلبك »

وليس على الورقة الهشمة التي تتضمن هذه الرسالة القصيرة أي توقيع ..

الفعال ، أو كتب في مركبة متحركة ، لا أدرى . كل ما أدريه ،
الفعال ، أو كتبت في مركبة متحركة ، لا أدرى . كل ما أدريه؛ ان شيئا في أسلوب الرسالة وخطها والورقة التي كتبت عليها يوحى بالقلق والعجلة ، وربما الهلع ، وان الرسالة في جملتها قد حيرتني وان تكن حيرة لا تخلو من الجذل والسرور لمجرد أنها كتبت الى ..

واذن يجب أن أحيا ، بل يجب أن أحرص على حياتي ، لانها قد تحتاج الى ، وقد تسمح لى أن أسعدها ..

واستبدت بى آلاف الخواطر والتأملات ، وقرأت الرسالة ، واعدت قراءتها ، قبلتها واعدت تقبيلها الى أن سكنت نفسي وهدأت ثائرتي ، وتراخت أعصابي ، وشعرت بحواسي تتأرجح بين النوم واليقظة :

ولا بد أن قد مرت بي ساعات طويلة على هذه الحال، لأنني عندما عدت إلى نفسي بعد ذلك كان الليل قد هبط أو كاد. ولكن ما هذا؟ أيطرق الباب طارق؟

وأصغيت بانتباه .. نعم .. هأنذا أسمع طرقا خافتا، لكنه متواصل.

ووليت إلى الباب وأنا أرتجف ضعفا وإعياء، ففتحته، ورأيت أمامي ذلك الغلام الصيني الذي أعرفه حق المعرفة.

لم يكن الليل قد محا بعد آية النهار، فتبينت في ضوء الغسق ليس فقط أثر الكدمة التي أصابت جبين الغلام لصرعته في عرض الطريق، وإنما تبينت كذلك أن وجهه الأصفر شاحب كالرماد.
هتف:

ـ اتبعني يا سيدي.

ولم يزد على ذلك.
فهبطت السلم وثبا .. والغلام في أثري ووجدت بباب الفندق مركبة في انتظاري وانطلقت المركبة دون أن أصدر للسائق أمرا.

وسألت الغلام:

ـ ماذا حدث؟

فحدق الغلام في وجهي، واهتزت شفتاه، ولكنه لم يجب.

وعبثا كررت السؤال، لأنه أبى أن ينطق بكلمة، وبلغ من حنقي وغيظي أن هممت بأن أبطش به مرة أخرى، ولكني تأثرت بهذا المظهر الرائع من مظاهر الإخلاص لسيده فكظمت غيظي، وقد أدركت أنه عازم لا يريد الكلام، فلن يتكلم.

وألهب السائق جواده، فانطلق الجواد بالمركبة بسرعة جنونية، وراح المارة يتواثبون على جانبي الطريق مخافة أن تدهمهم المركبة. ولم نلبث أن خرجنا من الحي الأوروبي إلى الأحياء الوطنية، ثم منها إلى الحي الصيني، وهو أقذر أحياء المدينة جميعا، وشقت المركبة طريقها ثم انحرفت المركبة في زقاق ضيق، ووقفت بباب بيت متداع أشبه بمكامن اللصوص ومواخير البغايا، ومغاور الأفيون وغيرها من البيوت الزرية التي يديرها أبناء الصين في مدن الشرق الكبرى.

وطرق الغلام الباب، ففتح ببطء وحذر، ودار بين الغلام وشخص آخر حديث طويل بصوت خافت، واستمر الحديث وقتا لا نهاية له إلى أن فرغ صبري، فوثبت من المركبة، واقتحمت الباب اقتحاما، ورأيت امرأة صينية متلفعة في السواد تفر من أمامي في هلع وذعر.

وسرت مهرولا في ممر طويل، والغلام في أثري حتى صادفني باب آخر .. ففتحته عنوة كذلك ودخلت وحينئذ وجدت نفسي في مكان حالك الظلام تنبعث منه رائحة الخمر والعفن، وسمعت أنينا .. ولم أتبين شيئا في الظلام، فأخذت أتلمس طريقي نحو مصدر الأنين.

وصمت محدثي، وعندما استأنف قصته مرة أخرى، كانت عبراته وتنهداته أوضح من صوته ..

قال:

ـ تلمست طريقي نحو مصدر الأنين، وهناك وجدتها ممددة على حشية قذرة، وهي تتلوى من الآلام وتئن أنينا مخيفا ..

ولم أستطع رؤيتها في الظلام، فمددت يدي، ولمست يدها، ووجدتها تلتهب بالحمى ..
حينئذ أدركت ما حدث، وارتجفت هلعا ..

لقد جاءت الى هذه المغارة فى طلب المعونة التى انكرتها عليها وابت – ومن حقها أن تأبى – أن تأتمنى على نفسها وشرفها وآثرت أن تسعى الى هذه القابلة الصينية العجوز لتعبث بها عبثا ، وتقتلها قتلا ..

نعم ، كان الاستهتار بالخطر ، بل وبالموت ، أحب اليها ، وأدنى الى كبريائها .. من التماس معونتى بالثمن الشائن الذى فرضته عليها ..

صرخت فى طلب ضوء ، وأقبلت العجوز اللعينة تحمل مصباحا زيتيا ينبعث منه الدخان

وددت لو انقض عليها .. وازحزحها بيدى .. ولكن ما الفائدة ؟

وضعت المصباح على مائدة .. وعلى ضوئه الباهت استطعت أن أرى الجسد المعذب المسكين

وفجأة ، ارتفعت الغشاوة عن عقلى وبصيرتى .. فنسيت حنقى على العجوز وعلى نفسى ، ونسيت الظروف المشئومة التى ساقتنا الى هذا المأزق ، وانقلبت مرة أخرى ذلك الطبيب البارع المجرب الذى دعى الى حالة خطيرة ، ويراد منه أن يبذل جهده ويستخدم علمه وبراعته على أكمل وجه للترفيه عن انسان يعانى ويتألم ..

نعم نسيت نفسى فجأة أو تناسيتها ، ونسيت شقائى أو تناسيته ، وتأهبت لصراع ضد عوامل الفناء والدمار .

ومددت يدى الى الجسد العارى الذى كنت الى وقت قريب أهيم به وأشتهيه ..

لقد أصبح الآن جسدا مريضا ، ولا شىء غير ذلك ، وأصبحت لا أرى فيه الا هيكلا يعصره الألم ، ويتنازعه الموت والحياة ..

ورأيت دمها على يدى فلم أفزع ، وكيف يفزع الطبيب المجرب وهو يعلم أن كل شىء يتوقف على ثباته وسرعة خاطره ورباطة جأشه ؟!

وكطبيب مجرب ، رأيت أن الخطر أعظم مما كنت أتوهم وأتوقع ...

والحق .. انه لم يكن ثمة أمل .. اللهم الا أن تحدث معجزة ، فقد عبثت العجوز بها عبثا ، وترك دمها كله ومازال ينزف ، وليس فى تلك المغارة اللعينة شىء يمكن استخدامه لوقف النزيف ، بل ليس فيها الا واحد نظيف ، أو قطرة ماء نظيفة ..

قلت لها :

– يجب أن نذهب بك فورا الى المستشفى ..

ولكن عذاب النفس ، غلب فيها عذاب الجسد ، فهمست وسط الأنين :

– كلا ، كلا ، كلا ، اننى أوثر الموت ، لا يجب أن يعلم أحد ، لا يجب أن يعلم أحد ، اذهب بى الى بيتى ، الى بيتى ..

ففهمت ..

فهمت أن شرفها وسمعتها .. أعز عليها من حياتها ..

فهمت وأطعت .. وجئنا بناقلة حملناها فيها الى بيتها تحت جنح الظلام .. وهى أقرب الى الموت منها الى الحياة .

وهناك .. مددتها فى فراشها .. وبدأت المعركة الحاسمة

- ٩ -

وانشب مخدلي اصابعه الحادة في ساعدي .. حتى كدت ان اصرخ !! ودفعته .. وادنى وجهه مني حتى استطعت ان اتبين بريق اسنانه .. والتي تومض في ضوء النجوم .

ثم تكلم بحدة وغضب .. وبصوت يلتهب بين الجحيم والمترجة قال :

انت ايها الغريب الذي لم ار وجهه قط في ضوء النهار .. انت يامن تطوف بالكرة الارضية لتجرد الغيث والتسلية .. اتعرف معنى ان ترى انسانا يموت !! وهل جلست يوما الى جانب شخص يحتضر وابصرت جسده يتقلص في الصراع الاخير .. واظافره تنشب في الفضاء .. وتقبض الهواء !!

وهل سمعت حشرجته .. وزفرات الذعر الذي يملأ عينيه وهو يجود بآخر انفاسه !!

هل مرت بك هذه التجربة المخيفة ايها السائح اللاهي .. الذي يحلو له التشدق بواجب المعونة والنجدة !!

انني رأيت الموت مرارا كطبيب وتوفرت على دراسته كظاهرة اكلينيكية .. ولكني لم اشعر بكل معانيه ولم ادركه بكل قوته الا مرة واحدة ..

في هذه المرة الواحدة .. عشت مع انسان .. ومت معه

كان ذلك منذ بضع ليال .. عندما جلست اعصر ذهني في البحث عن وسيلة لوقف الدم المتدفق واستنجد بما اوتيت من علم وتجربة لانقذ الحي التي تلتهمها امام عيني .. واحاول جاهدا ان ارجيء الموت ولو الى حين .

اتدرى معنى ان تكون طبيبا عالما مجربا تملك العلم والتجربة من معنى .. طبيبا وله واجباته ان يبذل المعونة ويحب النجدة .. اتدرى معنى ان تكون هذا الطبيب ثم تجد نفسك بلا حول ولا قوة الى جانب انسان يموت .. وكل ما تعلمته برغم علمك الواسع وتجاربك الفذة انك عاجز عن كل معونة ونجدة !! .. اتدرى معنى ان تحس نفسا تنفر وتتخلع ثم يتلاشى تحت يدك وانت عاجز عن الامساك به !!

كنت مغلول اليدين .. لا استطيع ان اذهب بها الى المستشفى حيث يمكن ان تهيأ لها فرصة للنجاة .. ولا استطيع ان استنجد بزميل يعاونني في هذا النضال العنيف بين الموت والحياة .. فاذا تركتها تموت امامي .. ولا املك الا ان اتقبل الى الله كما تعمل النجار في الاندلس .. او ان اعلق السماء بقبضتي كما يفعل الكفار .

ان الشيء الذي لا افهمه ولا ادركه .. هو كيف يستطيع الانسان ان يعيش بعد مثل هذه التجربة .. ولماذا لا يموت مع الميت .. وكيف ينهض في اليوم التالي .. ليتناول افطاره ويعقد رباط رقبته ويستأنف حياته العادية بعد ان يكون قد شعر بما شعرت .. ورأى كما رأيت .. ان شخصا عز عليه من حياته .. شخصا يفتديه باي شيء .. وبكل شيء .. قد ذهب امام عينيه الى حيث لا يدري .. والى غير رجعة ..

ولم الم آخر .. وعذاب آخر .. فقد كنت احس .. وانا جالس بجانب فراشها .. ان وراء ظهري نظرة ثاقبة لا تنفك عني .. تتصل الى قرارة نفسي

تلك كانت نظرة الغلام الصيني .. وقد جلس القرفصاء في ركن قصي .. وراح يحمل ويتطلع الى وجه بلهفة .. وكلما حانت مني التفاتة اليه .. ورفع عينيه الى عيني .. فقرأت فيهما من معاني التوسل والابتهال والرجاء .. ما تقرؤه في

عيني كلب اتيق يطلب الموت .

وفي بعض الاحيان . كان يعقد كفيه امام صدره ، فيبتهل الي كما يبتهل الى ربه ، الى انا العاجز الضعيف الذي يعلم ان لا أمل ولا رجاء ، ويشعر بانه في تلك الغرفة ، احقر واقل نفعا من اية حشرة تمشي على الارض .

هذا الابتهال وهذا الايمان الاعمى في قدرتي على انقاذ المرأة التي تتسرب حياتها امام سمعي وبصري لم يزيداني الا عذابا والما ، وشعورا بالضعة والعجز ، حتى صممت مرارا ان اصرخ في وجهه واقذف بادويته تحت قدمي .. ولكني في كل مرة كنت احس بانه مثلي ، يشاطرني حب هذه المرأة ، كما يشاطرني سرها الرهيب ..

كان خالصا وراءي كحيوان ابكم يرقب ولا يتكلم ، ولكني لا اكاد اطلب شيئا حتى يخف لتلبية طلبي ، بسرعة واهتمام كمن يأمل أن اكون قد وفقت آخر الامر الى ما يجدي وينفع ولو قد طلبت اليه ان يعطيها من دمه لاعطى ، ولو قد طلب الي أن اعطيها من دمي لاعطيت ، ولكن ما فائدة نقل دمنا اليها ، على فرض توفر الادوات والاجهزة — مادام لا سبيل الى وقف النزيف الذي ينزح الدم من شرايينها ؟

ان نقل الدم لايجديها فتيلا ، وكل اثره ان يزيد المها ويطيل عذابها ..

ولكن هذا الغلام الحبشي كان مثلي ، على استعداد لان يموت في سبيلها ..

هكذا كان سلطانها علينا ، وهكذا كانت قدرتها ، بينما لم تكن لي مجرد القدرة على وقف النزيف ، وانقاذها !

وعند الفجر ، عادت الى رشدها ، وافاقت من اثر حقنة المورفين التي حاولت بها ان ارفه من آلامها .

وفتحت عينيها ، ودارت بهما في جوانب الغرفة .

لم يكن فيهما أثر للصلف والكبرياء ، كانتا عينين مستجديتين ، يتألق فيهما وهج الحمى ..

وابصرت بي ، وظهرت على وجهها دلائل الحيرة ، وبذلت بعض الجهد ، لتتذكر هذا الرجل الغريب الواقف بجوارها ، وما أن تذكرت ، حتى رمقتني في بغض ، ولوحت بيديها ، كأنما لتنفضني عنها ، وتبعتني حركاتها ، وقسمات وجهها على انها لا تتردد في الفرار مني لو استطاعت اليه سبيلا ..

على انها لم تلبث أن حبست افكارها ، ونظرت الى بمزيد من الهدوء والاطمئنان

وكانت انفاسها تتردد ببطء وتثاقل ، فحاولت أن تتكلم وحركت الى تحلتي ، ولم تستطع من فرط ضعفها أن تصل هذا او ذاك فرحت بها ان اخلد الى السكينة ، ودنوت منها بحيث أسمع اضعف همساتها ، ونظرت الى نظرة محزونة تذيب القلب ، وهمست بصوت لا يكاد يسمع :

— لا يجب أن يعلم أحد ..

فاجبتها بايمان وثقة :

— لن يعلم احد ..

ولكن القلق ظل يمسك عينيها فبذلت جهدا عظيما حتى استطاعت أن تهمس :

— أقسم .. أقسم أن احدا لن يعلم ..

فرفعت يدي .. فوق رأسي ، واجبت :

— اقسم بشرفي .

فرمقتني – رغم ضعفها وتداعي حواسها – بنظرة أودعتها ما يحس به قلبها الكبير من شكر ووفاء ..

نعم .. انها شكرتني أخيرا بعد الذي قدمت من ضر وأذى .. وقرأت شكرها باستسلامة باهتة بذوب قلبي كلما ذكرتها

وبعد قليل حاولت مرة أخرى أن تتكلم فلم تستطع .. وأغمضت عينيها .. وراحت في هدوء ..

وقبل أن تنفذ أشعة الصباح الى جوف الغرفة .. كان كل شيء قد انتهى

– ١٠ –

وصمت محدثي وقتا طويلا .. وتهالك في مكانه ضعيفا خائر القوى بعد تلك النوبة العصيبة التي هيأت له أن ينشب أصابعه في ساعدي .

وابتعدت النجوم، وبهت ضوؤها . وهب نسيم رقيق ايذانا ببزوغ الفجر .

وكان محدثي قد خلع قبعته .. فاستطعت أن أرى وجهه وأتبين أي شقاء قد انطبع على قسماته رأى ألم .

وراح هو من ناحيته يحملق في وجهي بفضول واهتمام .. كأنما ليرى .. أي رجل هذا الغريب الذي كشف له خبيئة نفسه وسكب أمامه كل ما في قلبه .

ولما استأنف حديثه .. كان صوته لا يخلو من سخرية .. قال :

– انتهى كل شيء اذن بالنسبة اليها . ولكن لم ينته كل شيء بالنسبة الي .. فقد وجدت نفسي وحيدا أمام جثة .. في بيت غريب ،وبلد تسرى فيه الاشاعات والأقاويل سريان النار في الهشيم .. وقد أقسمت بشرفي أن أكتم الأمر .. واحفظ السر .. فتصور هذا الموقف !!

امرأة من أرقى طبقات الجالية لها مكانتها المحترمة وشخصيتها المبرزة .. لا يرتاب أحد في أنها تنعم بأوفر صحة .. وقد شوهدت منذ يومين ترقص في بيت الحاكم في جو من البهجة والمرح . هذه المرأة هي الآن جثة هامدة . والطبيب الوحيد الذي يعرف ما أصابها .. والذي لازمها وهي تموت .. هو

عابر سبيل بالمدينة .. فقد أخذه الخدم للعربة بسيدته .. لحملها الاثنان الى بيتها تحت جنح الظلام .. ولم ينبئا أحدا بأمرها .. بل ولم يدعوا سائر الخدم الا فى صباح اليوم التالى لكى ينبئاهم أن سيدتهم قد ماتت .

ان النبا خليق أن يهز المدينة هزا .. بعد ساعة أو ساعتين .. وحينئذ لا بد أن الطبيب الذى جاء من مكان قصى أن يوضح هذه الوفاة الفجائية .. ولا بد أن يقدم حسابا .. عما صنع .. وعما لم يصنع .. ولا بد أن يسأل .. لماذا لم يستقدم طبيبا آخر ليشاطره المسئولية .. ولماذا .. ولماذا ..

ولكنى كنت أدرك ماذا ينتظرنى . وكنت أجد العزاء فى وجود الغلام الصينى .. فهو مساعد مخلص . وهو يعلم على الاقل ان أمامنا معركة لا يزال علينا أن نخوضها

سألته :

– هل وعيت وصية سيدتك ! هل فهمت أنها لا تريد أن يعلم أحد بما جرى ؟

فأجاب ببساطة :

– نعم ..

وشعرت من نظراته انى أستطيع أن أثق به وأن أعتمد عليه ..

وقد قام لساعته .. فأزال بقع الدم من أرض الغرفة .. ونظم الفراش . ووضع كل شىء فى مكانه وأوحى الى ثباته ورباطة جأشه بمزيد من الشجاعة والجلد

والحق انه لم يتهيأ لى قط .. ولا أحسب أن سيتهيأ لى فى المستقبل بعض ما أحسست به يومئذ من نشاط .. وحيوية .. واتزان

ان الانسان إذا أخطأه التوفيق ، فضل التخلى عن جميع أهدافه الا أحدها ، فانه يناضل فى سبيل هذا الهدف الاخير بشجاعة اليائس وعزم المستميت .. وقد كان الهدف الاخير الذى أناضل فى سبيله .. هو انقاذ وصيتها .. وانقاذ سمعتها وشرفها .

لذلك لم يكن عجيبا أن أبدو حاذقا غاية الحذق .. ثابتا غاية الثبات واثقا من نفسى كل الثقة عندما استقبلت القادمين .. وجاوبت المستفسرين .. وقصصت على السائلين قصة موتها .. على النحو الذى ابتكرته .. واخترعت تفاصيله .

وقد ألف الناس فى المناطق الاستوائية .. ألوانا من الامراض الفجائية .. والموت الفجائى .. لذلك كان أسف القوم .. أشد من دهشتهم .. ولم يكن بينهم من يستطيع الارتياب عنا فى كلام طبيب مسئول ..

وقد أوضحت لهم أن السيدة عندما شعرت بمرضها الفجائى .. بعثت بخادمها الصينى فى طلب طبيب .. وأن الخادم قابلنى مصادفة واتفاقا ..

ولكنى رغم هدوئى المصطنع كنت أشعر بأشد القلق اشفاقا من مقابلة الرجل الوحيد الذى ينبغى أن أحسب له حسابا .. وأعنى به كبير الاطباء .. الذى يتعين عليه أن يفحص الجثة قبل أن يرخص بالدفن ..

كنا فى صباح يوم الخميس .. وسيعود الزوج يوم السبت . والمألوف فى المناطق الحارة أن يعجل الناس بدفن موتاهم .. واذن ستدفن السيدة قبل عودة زوجها .. ولكن لا بد لذلك من ترخيص يوقعه كبير الاطباء .. ولا أحد سواه

ولم يكن بد من أن أبعث فى طلبه .. فجاء فى منتصف الساعة العاشرة ..

كان أرفع مني مركزا ، وأرقى مرتبة .. وكان يبغضني ، ويتنكر على الشهرة الواسعة التي أصبتها عقب حادث الحاكم ، وهو بعينه الذي سخرت منه السيدة وقالت في وصفه ، انه يجيد لعب الورق أكثر مما يجيد مهنته ..

وقد أيقنت حالما وقع بصري عليه .. انه يبغضني حقا .. ويحقد علي حقا .. فلم يزدني ذلك الا ثباتا وصلابة

ذهبت لمقابلته في قاعة الاستقبال ، وما ان رآني ، حتى بادرني بالهجوم ..

سأل : متى توفيت مدام بلانك ؟!

— في الساعة السادسة من صباح اليوم

— ومتى أرسلت في طلبك ؟!

— أمس .. مساء ..

— هل كنت تعلم انني طبيبها الخاص ؟!

— نعم ..

— لماذا اذن لم تحاول الاتصال بي ؟!

— لضيق الوقت أولا ، ثم لأن مدام بلانك وضعت نفسها بين يدي خاصة .. وحظرت علي أن أدعو طبيبا آخر ..

فنظر الي بامعان ، واحمر وجهه ، ولكنه لم يلبث ان كظم غيظه ، وقال بقلة اكتراث :

— مهما يكن الأمر ، فانك أديت واجبك الرسمي اذ دعوتني ، ويجب أن أؤدي الآن واجبي الرسمي بفحص الجثة ، ومعرفة سبب الوفاة ..

فلم أجب ، وتركته يتقدمني الى مخدع مدام بلانك ، وما أن

دخلنا ، وقبل أن يمس الجثة ، قلت له : ليست المسألة أن نعرف سبب الوفاة ، وانما المسألة أن نخترع سببا للوفاة ، لقد أرسلت الى مدام بلانك لانقاذها اذا استطعت من عواقب عملية اجهاض رديئة ، أجرتها لها امرأة صيدلية ، ولقد كان مستحيلا أن أنقذ حياتها ، ولكني أقسمت لها بشرفي أن أنقذ سمعتها وشرفها ، واني أريدك الآن أن تساعدني على البر بقسمي ..

فنظر الي في دهشة شديدة ، وقال :

— كأني بك تريدني — أنا كبير أطباء المنطقة — أن أتعاون معك على اخفاء جريمة ؟!

— نعم .. هذا ما أريدك على أن تفعله ..

فقلب شفته بازدراء وقال :

— أو بمعنى آخر .. تريدني أن أساعد على اخفاء جريمة أنت مرتكبها ..

— لقد أفهمتك أن كل شأني مع مدام بلانك هو انني حاولت انقاذها من تبعات حماقتها وجريمة شخص آخر .. ولو كنت أنا المجرم .. لما بقيت على قيد الحياة حتى الساعة .. وقد دفعت مدام بلانك أقصى ثمن لحماقتها .. أما المرأة التي اقترفت جرم الاجهاض .. فان عقابها لا يتقدم ولا يتأخر .. وليس في مقدورك أن تنزل بها العقاب دون أن تلوث سمعة المرأة الميتة .. وهذا ما لا أسمح به ..

— هذا ما لا تسمح به ؟! انك تتحدث كما لو كنت رئيسي .. ولست مرؤوسي .. أتتجاسر على أن تصدر الي أمرا ؟! لقد ثارت ريبتي .. وأدركت أن وراء الأكمة ما وراءها .. حتى قيل لي انك دعيت من جحرك في جوف الأحراش .. للعناية

بمدام بلانك .. فيا لها من غاية ! وربما أنها من بداية طيبة لطبيب صغير .. في بلد كبير !

اسمع لي .. إنني لا أجد بدا من فحص الجثة ، ولن يقنعني تقريري في الحقائق التي أقع عليها .. ويجب أن تكون واثقا من أنني لن أذيل بإمضائي شهادة زائفة ..

— بل يجب ألا تفعل ذلك هذه المرة .. وإذا لم تفعل فلن تبرح هذه الغرفة على قيد الحياة ..

ووضعت يدي في جيبي .. ونظرت إليه مهددا ..

ولم يكن المسدس معي .. لأنني تركته في غرفتي بالفندق .. ولكن الخدعة نجحت .. وتراجع الرجل خطـوة وهو مذعور .. واقتربت منه خطوة .. وأنا أقول بلهجة تجمع بين الشدة واللين ويختلط فيها التهديد بالرغبة في التفاهم :

— اسمع إلي .. سوف يؤسفني أشد الأسـف أن ألجأ إلى العنف ، وأن أفعل ما ليس لي منه بد .. ولكن ربما يكون من الخير لك أن تعلم أنني لا أقيم لحياتي وزنا .. لقد سئمت الحياة .. حتى لم يبق لي فيها ما أهتم له غير شيء واحد .. هو الوفاء بالوعد الذي قطعته على نفسي لهذه المرأة الميتة بأن يظل سبب موتها سرا مكتوما ..

وإني أعلم .. كما وعدت هذه المـرأة .. أنك أنت وقعت شهادة الوفاة وانتحلت للموت سببا .. وليكن مثـلا حمى تيفية خبيثة .. مقترنة بهبوط في القلب .. فإنني أبرح هذه البلاد قبل انقضاء أسبوع .. أو — إذا شئت — أطلق الرصاص على رأسي .. حال تحقق خاطري من أن أحـدا لن يستطيع إثارة الموضوع والمطالبة بفحص الجثة ..

هذا وعد جميل أن يرضيك ، بل يجب أن يرضيك ..

ولا بد أن صوتي وقسمات وجهي ، ونبر كلامي ، كانت كلها تنم عن التهديد ، لأنه جبن ، وراح ينفذ خطواتي ، كلما دنوت منه خطوة ، وارتسم على وجهه ذلك الخوف الذي يحمل الناس على الفرار من المجهول حين يلوح بخنجره الموت بالهم ..

جبن الرجل إذن ، وكان جبنه واضحا ، فتبدلت لهجته ولم يعد ذلك الموظف الحازم الصارم المتمسك برقيه الجافي ، بيد أنه أراد أن يظهر المقاومة على نحو ما ، فغمغم :

— لم يسبق لي قط في حياتي ، أن ذيلت بإمضاء شـهادة زائفة ، ومن المحتمل ألا يرتفع صوت بالاعتراض إذا أنا كتبت الشهادة بالصيغة التي تقترحهـا ، ولكن مع ذلك أرى في ضميري أن هذا عمل لا ينبغي أن أقدم عليه

ولاحظت ، أنه يقوم بمحاولة أخيرة إبقاء على ماء وجهـه ، فقلت لأمهد السبيل :

— طبعا ، من واجبك ألا تقدم على عمل كهذا ، ولكن هـذه حالة خاصة ، وحتى علمت أن الإفضاء بالحقيقة سيجر الشقاء حتما على رجل حي ، وسيقضي حتما بسمعة المرأة الميتـة ، فلا شك أنك لا تتردد ..

فأطرق رأسه ، وبحثنا معا حول المبالغة كمـا يفعل الأصدقاء ، وكتبنا الشهادة بالصيغة التي اتخذتها الصحف في اليوم التالي أسـاسا لروايتها عن وفاة مدام بلانك ..

لم ألبث واقفا ، وقال وهو يصافحني بعينيه :

— لعلك ستبحر إلى أوربا بأول باخرة .. أليس كذلك ؟

— طبعا ، لقد وعدتك وسأبر بوعدي .

واستمر ينظر إلي بامتنـان ، فأدركت أنه يريد أن يكون حازما ودقيقا ، وأنه يجد في ذلك غير قليل من المشقة ..

قال ، واحسب انه انما اراد أن يخنق حيرته ، اكثر مما اراد أن ينهي الي نبأ :

— لقد كان مقررًا أن يعود مستر بلانك يوم السبت المقبل، وكان في نيته أن يرافق زوجته في رحلة الى انجلترا لزيارة أهلها ، ولكني أعتقد الآن ان هذا الزوج البائس سيحمل جثة امرأته الى مسقط رأسها ، فهو — كما تعلم — رجل غني ، وفي وسع الأغنياء أن يصنعوا ما يريدون ، لهذا سأصدر أوامري الآن باعداد كفن مبطن بالرصاص ، لتوضع به الجثة ويغلق ، وبهذا نتخلص من متاعبنا العاجلة ، وسوف يعلم الزوج انه لم يكن بوسعنا في هذا الجو القائظ أن نترك الجثة حيث هي الى أن يعود ، واذا ظن بعد ذلك اننا تعجلنا الأمر فانه لن يجسر على التصريح بظنونه ، فنحن موظفون ، وهو لا يعدو أن يكون تاجرا ، وان يكن في مقدوره أن يشترينا معا دون أن تتأثر ثروته .. أضف الى كل ذلك اننا انما نتصرف على هذا النحو لنوفر عليه آلاما لا ضرورة لها ..

وهكذا استحال غريمي منذ بضع دقائق ، الى شريك يفكر معي ويدبر ، ويضع الخطط ويستنبط المبررات ، ولا غرو ، فقد كان واثقا من انه سيتخلص مني عاجلا ، وسيتخلص مني الى الابد .. ثم انه كان بحاجة الى هذه المبررات ، لابراء ذمته وارضاء ضميره .

بيد انه صنع بعد ذلك شيئا لم يكن منتظرا على الاطلاق .. ذلك انه بسط الي يده وشد على يدي بحرارة وهو يقول : أرجو لك صحة موفورة ، وشفاء عاجلا .

فترى ماذا كان يعني ؟ هل كنت مريضا ؟ هل كنت معتوها ؟

وتقدمته الى الباب ، وفتحته في أدب ، وودعته بكل اجلال واحترام ..

وعندئذ فقط خارت عزيمتي ، وسبحت الغرفة أمام عيني فتهالكت على الارض بجانب فراشها كما يتهالك المحموم حتى يفرغ من ثورته العاتية وحميه وصرامة تختم حياته .

ولا أدري كم من الزمن ظللت ملقى على الارض ، الى ان سمعت حركة في الغرفة ففتحت عيني ..

ورأيت الغلام الصيني واقفا ينظر الي بقلق .

قال : بالباب شخص يريد أن يقابل سيدي .

— لا يجب أن تدع أحدا يدخل .

— ولكن يا سيدي ..

وتلعثم .. ونظر الي في خجل وحاول عبثا أن يعبر عما يريد .

كان من الواضح انه يألم لشيء .

سألته : من هو ..

فارتعد ، كما يرتجف الكلب خوفا من الضرب .. ولم ينطق باسمه .. وتلك حساسية غير مألوفة في خادم صيني .. كل ما فعله انه قال ببساطة : رجلها .

ولم يكن بحاجة الى مزيد من الايضاح .. فقد عرفت فورا من يعني .. وشعرت بأشد الفضول لرؤية هذا المجهول الذي أسقطته من حسابي .. وتناسيت وجوده .. والواقع — وهو ما قد يدهشك — انها ما كادت تكشف لي عن خبيئة نفسها .. وما كنت أعرض عليها ذلك العرض الدنيء .. حتى نسيت هذا المجهول .. وأقصيته من ذهني ، فلم أذكر وسط العجلة والشقاء وضعف الظروف ان هناك رجلا آخر له أوثق الصلة

بالموضوع ·· وأعنى الرجل الذى احبته هذه المرأة بكل قوتها ·· واعطته من نفسها ما انكرت على ·

ولو قد جاءنى هذا الرجل فى اليوم السابق لكرهتــــه ·· وتمنيت ان أمزقه اربا ·· اما الآن فاننى فى أشد الشوق الى رؤيته لاننى أحبه ·· نعم ·· أحبه ·· لانها أحبته ·

وانطلقت الى قاعة الاستقبال ··

وهناك رأيته واقفا امامى ·· ضابطا جميل الطلعــــة ·· أشقر الشعر ، صغير السن ·· بل صغير السن جدا ·· حتى ليكاد ان يكون غلاما ··

وكان شاحب اللون مضطرب العينين ·· يبذل جهدا يدعو الى الاشفاق ·· لكي يبدو هادئا رزينا ·· متماسكا

وارتجفت يده قليلا وهو يحييني ·· وكنت ان أحيطه بساعدى ·· وأربت على كتفيه واقبله ·· اغتباطا بما اجتمع له من صفات هى كل ما رجوت ان تجتمع لرجل خليق بحب هذه المرأة ·

نعم ·· اغتبطت ·· لانه لم يكن ابن الاعراض المغــــرور الواثق بنفسه ·· بل كان العاشق الرقيق الخجول الذى راعه وقوع عليه اختيارها واسلمته نفسها ·· ولها فيما فعلت كل العذر ·

ووقف الفتى امامى مذهولا حائرا لا يزيده الهدوء المفتعل واطالتي النظر فى وجهه الا ذهولا وحيرة ·· ثم تقلص وجهــه قليلا وخيل الى انه مشرف على البكاء ·

قال اخيرا : ارجو الا اكون متطفلا ·· ولكنى اتوق الى رؤية مدام بلانش للمرة الاخيرة

وبغتة ودون ان ادرك ما انا صانع احطت كتف الشــــاب

بساعدى وسرت به نحو الباب · فنظر الى بمزيج من الدهشة والامتنان واحسســنا معا فى عقدة الحجلة بشعور متبادل ··· بالزمالة والاخلاص ··

كانت ممددة فى فراشها ·· وكل جسدها — فيما عدا الرأس والكتفين والساعدين — مغطى بغلالة بيضــاء ··

وشعرت بأن وجودى على كثب منه ·· قد يمضـــــه ·· ويضايقه ·· فتراجعت قليلا ·

وفجأة رأيته يتهالك ·· كما تهالكت ·· ويقـــوص على ركبتيه ·· ولم يقو بعد ذلك على كبت عواطفه ·· فانفجـــر يبكى ··

وماذا كان فى استطاعتى أن اقوله او ان افعله ؟
لا شيء ··

انهضته من مكانه ·· واجلسته على احد المقاعد ··وجلست بجواره ·· واردت ان ارفه من حزنه وانفعاله ·· فمـــررت يدى فوق رأســه الاشقر الجميل ··

وتناول الفتى يدى وضغطها بعطف واخلاص ·· ثم قال :
— انبئنى بالحقيقة كلها يا دكتور ·· انها لم تقتل نفسها ·· أليس كذلك ؟!

فاجبته : كلا ··

— اذن من المسئول عن موتها ؟ ··

فاجبت : لا احد ··

ووددت من قرارة نفسى ان اهتف :
— انا ·· انا المسئول ·· انا وانت ·· كلانا مسئول · كلانا ، وكبرياؤها

ولكني لم أنطق بهذه الكلمات ٠٠ وقلت :

ـ كلا ٠٠ كلا ٠٠ لا أحد مسئول عن موتها ٠٠ ذلك كان مصيرها المحتوم ٠

فقال وهو يئن :

ـ ذلك ما لا أستطيع أن أفهمه ٠٠ أو أتصوره ٠٠ لقد كانت لي على صحتها منذ يومين ٠٠ وقد رأيتها في حفلة الحاكم فأحنت لي رأسها محيية ٠٠ وابتسمت لي ٠٠ فكيف يمكن أن يحدث هذا ؟! كيف يمكن أن تموت بهذه السرعة ٠٠ وعلى المفاجأة ؟!

فقصصت عليه سلسلة من الأكاذيب ٠٠

كان يجب أن أكتم سرها حتى عن عشيقها ٠٠

وقضينا ذلك اليوم واليوم التالي في حديث أخوي ، وكلانا يشعر ، وإن لم يصرح ، بأن حياتنا معا قد امتزجت في علاقتنا بالمرأة الميتة ، وقد مرت بي لحظات أشعر فيها بأن الكتمان يمضني ويثقل كاهلي ولكني رغم ذلك حرصت عليه أشد الحرص ، فلم يعلم الفتى قط أنها حملت منه جنينا ، وأنها جاءتني لأقتل الجنين ، فلما رفضت ، خطت تلك الخطوة التي ذهبت بحياتها ٠٠

لم يعلم الفتى شيئا من ذلك ، وإن يكن حديثنا لم يتناول شيئا سواها ، طيلة الأيام التي قضيتها مختبئا عنده ٠٠ أجل ٠٠ لقد فاتني أن أقول لك إنني اختبأت عنده ، وإنهم كانوا يبحثون عني في كل مكان ، فقد عاد زوجها بعد أن أغلق التابوت ، وكان الجو حافلا بشتى الإشاعات ٠٠ فارتاب الرجل في الأمر ٠٠ وأراد أن يعرف الحقيقة مني ٠٠ أنا الوحيد الذي لازمتها خلال مرضها وموتها ٠٠ ولكن لم يكن في مقدوري أن أقابل

هذا الرجل الذي قتلت نفسها خوفا منه وإشفاقا ٠٠ نعم ٠٠ لم يكن في مقدوري أن أقابله ٠٠ فتواريت أربعة أيام طوال ٠٠ لم أبرح البيت خلالها لحظة واحدة ٠

وأخيرا ٠٠ رجوت الضابط الشاب أن يحجز لي مكانا على أحدى البواخر باسم مستعار ٠٠ ولما هبط الليل ٠٠ تسللت إلى الباخرة تاركا ورائي كل شيء ٠٠ ثيابي ٠٠ ومقتنياتي ٠٠ والعمل الذي تقلدت له من ذات نفسي طيلة سبعة أعوام ٠٠ وتاركا بيتي مفتوحا ٠٠ يدخله من يشاء ٠٠ ولا شك أن ذوي الشأن قد محوا اسمي الآن من سجل موظفيهم ٠٠ على اعتبار أني (غائب بغير إذن) ٠٠ ولكني لست آسفا على شيء ٠٠ فقد كان يستحيل علي أن أعيش في ذلك البيت أو في تلك المدينة ٠٠ أو في هذا العالم ٠٠ حيث كان كل شيء يذكرني بها ٠٠

وهكذا فررت كما يفر اللص تحت جنح الظلام ٠٠ لغاية واحدة ٠٠ هي أن أنساها ٠٠

ولكن على غير طائل ، لأنني ما كدت أصعد إلى ظهر الباخرة حول منتصف الليل ، لأودع صاحبي الشاب الذي رافقني ، حتى رأيت صندوقا كبيرا من النحاس يحمل إلى الباخرة ٠٠

كان هذا الصندوق يحتوي على تابوتها ٠٠ وقد تعقبني التابوت كما تعقبتها يوما إلى العاصمة ٠٠

ولم يسعني إلا أن أنطوي على ما يجيش في نفسي وألزم الصمت ٠٠ وأتظاهر بقلة الاكتراث ٠٠ فقد كان زوجها موجودا في الباخرة ، كان يرافق التابوت إلى انجلترا ، ولعله اعتزم أن يفتح التابوت هناك ليعيد فحص الجثة ، ويعرف الحقيقة ، مهما يكن الأمر فقد أخذها ٠٠ واسترجعها منا ، وأصبحت ملكا له ٠٠ وليست ملكا لنا ٠٠

وفي سنغافورة ، انتقلت الى هذه الباخرة التي تقلنا الآن .. ونقل التابوت اليها كذلك ، وانتقل الزوج معه .. فهو هنا الآن .. ولكني ما زلت احترمها ، واحاول اخرسها الى النهاية ، ولن يعرف الزوج سرها .. لانني سأدافع عنها الى النهاية امام هذا الرجل الذي حاولت الافلات منه فلقيت حتفها .

نعم ، انه لن يعرف شيئا ، لأن سرها من حقي وحدي ، وليس من حق اي انسان آخر في الوجود .

فهل فهمت لماذا ابرم بهم .. ولا استطيع ان اراهم يمرحون ، واسمعهم يضحكون ، بينما اعلم ان في قرارة الباخرة بين صناديق الشاي والكاس الصدق .. صندوقا كبيرا يحتوي على جثتها ؟!

انني لا استطيع الاقتراب منها .. لأن قاع الباخرة مغلق .. محكم الغلق ، ولكني احس بقربها مني ليلا ونهارا .. واذكرها كلما سمعت ضحكة .. وكلما صدحت موسيقى ..

ولعلك الآن تتهمني بالحمق والسفه .. ولك ان تقول ان قاع البحر يضج بملايين الجثث ، وان كل حفنة من التراب التي نطأها بأقدامنا كانت يوما جثة .. وكانت يوما انسانا له من يحبه ، ويبكيه ، ويفتقده .. وان هذه الجثة لا تمتاز على غيرها من الجثث بقليل او كثير .. ولكن هذا لا يغير من امري شيئا ، فانني لا اطيق ان ارى القوم يضحكون ويرقصون ويعبثون في باخرة تحمل جثتها ..

انني اعرف ماذا تنتظر مني .. واعلم ان هناك شيئا لا يزال على ان افعله .. ان سرها لم يصبح الى الآن ملكي .. والى ان يصبح في امان .. سيظل رهني معلقا .. ينتظر الوفاء ..

وفي هذه اللحظة .. سمعنا جلبة البحارة .. ووقع اقدامهم

الى ارجاء الباخرة .. واضطرب محدثي .. ونهض واقفا وهو يقول : آن لي ان اذهب ..

كان منظره يدعو الى الاشفاق والرحمة .. فقد ارتسم الهم على سحنته ، وبدت آية الشقاء التي لا تخطئها العين ، واحمرت عيناه من فعل الخمر .. والبكاء ..

وخيل الي انه ، انه قد ادى عني باستماله ومشاعره ، واكبر الظن انه يندم على حديثه .. ويخجل من نفسه ، واسف على ان اقتحم لي قلبه .. واردت ان ابدي له بعض الود .. فقلت :

- الا تسمح لي بأن ازورك في غرفتك بعد ظهر اليوم ؟!

فارتسمت على شفتيه ابتسامة قاسية ساخرة .. واجاب بعد تردد قصير :

- آه .. نعم .. (انه من واجب كل انسان جدير بآدميته ان يتطلع الى نجدة الغير) .. الست صاحب هذه النظرية البديعة ؟ لك رددتها منذ بضع ساعات .. فاقتلعتني بها في لحظة ضعف وحللت بها عقدة لساني ..

انني اشكر لك نواياك الطيبة نحوي .. ولكني افضل ان اخلو الى نفسي ..

ولا تحسبن انني اشعر الآن بمزيد من الارتياح لانني فتحت لك صدري .. وكشفت لك عن احشائي .. وقد انتزعت حياتي لتنزلها وليس في مقدور احد ان يرتقها ويعيدها سيرتها الاولى .

انني لم اجن شيئا من عملي وكدي في المستعمرات الهولندية زهاء سبعة اعوام .. وقد فقدت كل حق في المكافأة والمعاش ، وعاينا اعود الى هولندا صفر اليدين .. انتبه بكلب يتسكع وراء نعشي ..

ان الانسان لا يستطيع ان يخرج عن طوقه دون ان يدفع الثمن .. ونهاية المجهول هي دائما رصاصة تخرق رأسه .. واني لارجو أن تحين نهايتي عاجلا »

انى أشكر لك مرة أخرى رغبتك الكريمة فى زيارتى ولكنى أنعم فى عزلتى بخير رفيق يؤنس وحشتى وأعنى به الخمر .. فلدى الشيء الكثير من أفضل أنواع الويسكى .. وفى ذلك عزاء لى وأى عزاء ! وثم رفيق آخر قديم يؤنسنى التى لم أستخدمه عاجلا بدلا من أن أستخدمه آجلا .. وذلك هو مسدسى الذى سوف يهيئ لى الراحة و السكينة هلا يهيئه اى اعتراف .

ان بين (حقوق الانسان) حقا لا يستطيع احد ان ينكره .. او يحول دونه .. واعنى به حق الانسان فى ان يلهب رأسه برصاصة أينما يريد .. وحينما يريد .. دون حاجة الى معونة أحد .. فلا ترهقن نفسك بزيارتى .

وحدجنى باحتقار وتحد .. وان اكن قد شعرت بانه يحس فى قرارة نفسه بالخزى ولا شيء غير الخزى .. ثم دار على عقبيه وانصرف دون أن ينطق بكلمة وداع .

ولم اره بعد ذلك رغم انى اختلفت الى مقدم الباخرة مرارا فى الليالى التالية .. وكان اختفاؤه تاما بحيث وقع فى نفسى ان كل ما سمعته لم يكن الا وهما وهذيانا من صنع خيالى لولا انى رأيت بين المسافرين رجلا يلبس ثياب الحداد .. قيل لى انه هولندى .. وان امرأته ماتت بالحمى أخيرا .

وكان هذا الرجل يمشى منفردا .. ولا يتحدث الى أحد .. وقد آلمنى ان اراه وان اشعر باننى اعرف سر حزنه وهمه .

كان كلما مر بى اشحت بوجهى لكيلا يقرأ فى سحنتى انتى أعرف من امره أكثر مما يعرف من أمر نفسه ..

وفى نابولى .. وقع الحادث الذى اشرت اليـــه فى اول

الحديث والذى كان فى مقدورى أن ادرك طوقه واسناله على سره القصة التى سردها على الطبيب المجهول ..

كان أكثر المسافرين .. وأنا بينهم قد ذهبوا الى الشاطئ .. فقصدت الى دار الاوبرا ثم تناولت العشاء فى مطعم فخم بشارع روما .. ولكنى ما كدت استقل احد الزوارق ليقلنى الى الباخرة حتى لاحظت أن هناك حركة غير عادية ورأيت قوارب تروح وتغدو ورجالا يحملون المشاعل ويتطلعون فى صفحة الماء ، وأبصرت عند حافة الباخرة طائفة من حملة البنادق وهم يتحدثون فى همس .. فسألت أحد البحارة عما هنالك ، ولكنه تاوغ فى الاجابة ، وبدا لى انه تلقى أمرا بالتزام الصمت ..

وفى اليوم التالى ، عندما أبحرت الباخرة فى طريقها الى جنوا ، حاولت مرة اخرى أن أعرف سر الحركة غير العادية التى رأيتها فى الميناء ، ولكن بغير جدوى .

واخيرا ، فى (جنوا) .. وقعت فى احدى الصحف الايطالية على تفصيل ما حدث فى نابولى ..

ويتلخص ما حدث ، فى ان القائمين بامر الباخرة (ووثان) القادمة من جزر الهند الهولندية ارادوا أن يجنبوا المسافرين ما قد يزعجهم .. فانتهزوا فرصة الظلام .. وأنزلوا من الباخرة الى احد القوارب تابوتا يحوى جثة سيدة .. وكان زوج السيدة فى القارب ينتظر التابوت ..

ولكن لم يكد التابوت يتوسط المسافة بين الباخرة والقارب .. حتى سقط عليه من اعلى الباخرة جسم ثقيل لا يعرف كنهه .. فانفلت التابوت من الحبال التى أوثق بها ، وسقط فى القارب بكل ثقله .. وانقلب القارب بمن فيه .

ولما كان التابوت مبطنا بالرصاص .. فقد غاص توا في الماء ولم يظهر له أثر ..

ولحسن الحظ لم تحدث خسائر في الأرواح .. لأن التابوت لم يصب أحدا من الذين كانوا بالقارب ، واستطاع البحارة أن ينقذوا الزوج ومن معه .. بعد مجهود غير يسير ..
ولكن ما سبب الحادث ؟ ؟

تقول الجريدة ان الرواة اختلفوا في تعليله .. وان بعضهم يزعم أن محتوها الذي بنفسه من الباخرة وارتطم بالتابوت وكان سببا في سقوطه .. ولكن هذا التفسير قد لا يعدو أنه يكون مجرد عذر التمسه المسئولون لستر الغلطة التي ارتكبوها حين شدوا التابوت الثقيل بحبال لا تقوى على حمله ومهما يكن الأمر فان ضباط الباخرة يلزمون الصمت .. ويتجنبون الاجابة على أى سؤال بصدد الحادث ..

وفي مكان آخر من الجريدة .. وقعت في نبأ آخر مقتضب .. مفاده أن جثة رجل مجهول يناهز الخامسة والثلاثين من عمره وجدت طافية في ميناء نابولى .. وأنه لوحظ وجود جرح في الرأس يرجح أن يكون من رصاصة مسدس ..

ولم تعلق الجريدة .. ولم يفطن أحد من الناس الى أية صلة بين سقوط التابوت .. والجثة التي وجدت في الميناء .

أما أنا فلم أكد أقرأ هذين النبأين الغريبين في الظاهر .. الوثيقى الصلة في الواقع .. حتى طالعتني من صفحة الجريدة سحنة ذلك الطبيب التعس .. التي قصصت الآن قصته

تمت

صدرت يوم السبت أول أكتوبر ١٩٥٩

مطبوعات الدار القومية للطباعة والنشر

الاشتراك السنوى (٥٢ عددا)

	في الاقليم المصري	في الاقليم السوري	في المملكة السعودية	في لبنان	في العراق	في الأردن	في الكويت	في السودان
كتب سياسية	١٥٠ قرشا	٢٥٠٠ قرشا	١٠٠٠ قرشا	٢٥٠٠ قرشا	٢٥٠٠ فلسا	٢٥٠٠ فلسا	٧٥ آنة	١٥٠ قرشا
كتب قومية	١٠٠ „	١٧٠٠ „	٦٦٥ „	١٧٠٠ „	١٧٠٠ „	١٧٠٠ „	٥٠ „	١٠٠ „
كتب ثقافية	٢٥٠ „	٤٢٠٠ „	١٦٦٥ „	٤٢٠٠ „	٤٢٠٠ „	٤٢٠٠ „	١٢٥ „	٢٥٠ „
روايات عالمية	١٥٠ „	٢٥٠٠ „	١٠٠٠ „	٢٥٠٠ „	٢٥٠٠ „	٢٥٠٠ „	٧٥ „	١٥٠ „

ترسل الاشتراكات بعنوان : الدار القومية للطباعة والنشر
٢ شارع طلعت حرب بالقاهرة

العدد القادم

كازانوفا

للكاتب الفرنسي الكبير
برتران دى نورفان

العدد السادس والثلاثون

الثمن ٣ قروش

الدار القومية للطباعة والنشر
شركة ذات مسئولية محدودة
ص.ب ٢٣٩٨
٢ شارع طلعت حرب ـ القاهرة